الخلفيات المنهجية

في دراسات المستشرقين حول العربية

د. السيد عبدالحليم الشوربجي

كتاب المجلة العربية
265

الخلفيات المنهجية
في دراسات المستشرقين
حول العربية

تأليف
د. السيد عبدالحليم الشوربجي

كتاب المجلة العربية
265

رئيس التحرير
محمد بن عبدالله السيف

الرياض. طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين). شارع المنفلوطي
هاتف: 4777943. 4767345 فاكس: 4766464
ص.ب 5973 الرياض 11432
المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com
info@arabicmagazine.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ح

الشوربجي، السيد عبدالحليم
الخلفيات المنهجية في دراسات المستشرقين نحو العربية. / السيد عبدالحليم الشوربجي.-
الرياض، 1439هـ
104ص؛ 14×21سم.- (كتاب المجلة العربية؛ 265)
ردمك: 978-603-8204-63-4
1 - الاستشراق والمستشرقون 2 - اللغة العربية أ.العنوان ب.السلسلة

ديوي 301.295 1439 / 10228

رقم الإيداع: 1439 / 10228
ردمك: 978-603-8204-63-4

المحتويات

مقدمة

بسم اللّه والحمد للّه والصلاة والسلام على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أفصح العرب وأبينهم قولاً.

وبعد:

فقد أخذ مصطلحُ الاستشراقِ منحى سلبيّاً في كثير من الأحيان، وارتبط في العقل العربي والإسلامي بالانتقاص من التراث الإسلامي عموماً، ونتج هذا مما بات يعرف في ثقافتنا الإسلامية المعاصرة بالغزو الفكري، الذي تزامن مع الغزو والاحتلال الغربي لأكثر دول العالم الإسلامي. وتركزت معظم الدراسات التي قامت حول الاستشراق والمستشرقين على الدوافع والآثار السلبية لمقاصد الاستشراق، والتركيز على النواحي السلبية التي أثارها المستشرقون حول التراث الإسلامي عموماً واللغوي منه أيضاً؛ فحينما يثار مصطلحا (الاستشراق والمستشرقين) يتبادر إلى الذهن العربي نظرة سلبية لما كان يقوم به المستشرقون من دراسات حول تراثنا العربي والإسلامي؛ وارتبط هذان المصطلحان في الذهن العربي بسنوات الاحتلال الغربي، ومحاولة المستشرقين أو جلهم بعث الجانب السلبي في تراثنا والتركيز عليه، والانتقاص من قيمة الإيجابي منه، وتحريفه. أو على الأقل تصدير فهم سقيم عنه. يقلل من شأنه، ويظهر عواره.

ومع ذلك فقد كان هناك منحىً وبعدٌ ربما لم يأخذ حظاً كبيراً من الدراسة؛ وهو البعد المنهجي عند بعض المستشرقين، بعيداً عن الدوافع والأهداف السياسية والدينية والفكرية التي دفعت المستشرقين لدراسة التراث الإسلامي؛ خاصة وقد حفلت بعض الدراسات الاستشراقية بكثير من الإنصاف والأحكام المحايدة البعيدة عن التعصب الديني والفكري الذي ساد في دراسات استشراقية كثيرة تناولت التراث عموماً.

فمـن غير الإنصاف مثـلاً: سلب المنهجية عن دراسـات كثيرة قام بها عدد مـن المستشرقين... وإن خرجت بعض نتائجهم وأحكامهم في بعض الأحيان مخالفة لما عليه البحث اللغوي العربي؛ لكنها نتائج يمكن الاتفاق والاختلاف معهـا بقدرها، وفي نطاق المنهجيـة التي قامت عليها هـذه الدراسات، التي فتحت مجالاً كبيراً للبحث والدراسة وأضافت للجهد اللغوي العربي القديم.

هـذا فضلاً عـن عناية عدد كبير مـن المستشرقـين بالعربيـة، ودراسة كل مـا يتصل بها من قريب أو بعيـد؛ فبحثوا في فقههـا، وأصواتها، ولهجاتها، ونحوهـا، وصرفها، وأصولهـا، ومعاجمها، وأطوارهـا، وغزارتها، ومادتها، وفلسفتها، وعلاقاتها باللغات الأخرى، وخاصة اللغات الساميَّة، ومميزاتها وعناصرهـا، وتاريخها، ونقوشها، وكل مـا أنتجته هذه اللغة، حتى يبدو كأن (الاستشراق) قد صب اهتمامه كله عليها.[1]

ولا شـك أن دوافـع المستشرقـين في دراسة العربية كانـت متفاوتة، ولم تكن علـى درجة واحـدة، أو منحىً ثابت، بـل تعددت مناحيهـا ودوافعها، وحتى الدراسـات التي قامـت على أسس منهجية -خاصـة بالمستشرقين- ربما لم تأت بنتائج منصفة تضع العربية في مصافها الطبيعي بين اللغات.

فهـل كانـت هـذه المُسلَّمَات التـي تنطلق مـن الشـك في نوايـا المستشرقين مستقيمـة؟ وهـل كان دافع المستشرقين لدراسة العربيـة هو الانتقاص منها وإعـلاء شـأن العاميـات في مقابـل الانتقاص مـن الفصحـى؟ أم أنها أثر نفسـي نتج مما يعرف بالغزو الفكري والثقافي الذي شاع في ثقافتنا العربية والإسلاميـة، والتسليـم بأن الدرس الغربـي لتراثنا العربـي عموماً لم يأت بخير؛ فضلاً عن محاولته التشويه والتقليل من شأن ذلك التراث.

(1) فلسفـة الاستشـراق وأثرهـا في الأدب العربي المعاصـر. د. أحمد سمايلوفتش: (صـ 184)، دار الفكر العربي. 1418هـ. 1998م.

مــن هنا كانت فكرة هذه الدراسة. التــي تنطلق من تساؤل رئيس ينبثق منه عدة تساؤلات أخرى.

هذا التساؤل هو:

- هل كان اهتمام المستشرقين بدراسة العربية ناتجاً من رؤية علمية منهجية حياديــة، وفق مناهج علمية، بعيداً عن أي تأثـير فكري.. أم كان له أهداف أخرى؟

ومن هذا التساؤل تثار عدة تساؤلات أخرى؛ ستحاول الدراسة الإجابة عنها:

- هــل كان المستشرقــون ينطلقون من رؤيــة موحدة، أم كانــوا متفاوتين في نظرتهم للعربية؟

- هــل كانت هناك نزعــة منهجية عنــد المستشرقــين في دراساتهم للتراث عموماً، والعربية على وجه الخصوص؟

- ومــا المناهج اللغوية التــي انطلق منها هؤلاء المستشرقــون؟ وهل وفقوا في نتائجها؟ أم أنهم حاولوا أن يخرجوا بنتائج تنتقص من قيمة العربية؟

- هل اهتم المستشرقون بالمستوى العامي على حساب المستوى الفصيح؟

- وهــل تعمــد المستشرقون الانتقاص من الفصحــى، أو على الأقل تهميشها لإفساح المجال للعاميات الحديثة؟

- أم كانــت هناك أبعاد أخرى للدعوة إلــى العامية كانت سبباً في تبني هذه الدعوة من قبل بعض المستشرقين؟

ستحــاول الدراســة الإجابة عــن هذه التســاؤلات، متتبعة بعضــ الجهود التي قــام بهــا المستشرقون من دراســات حول العربية.. من خــلال قراءة في جهود المستشرقــين اللغويــة، وموقفهم من العربية والتراث اللغــوي عموماً، والمناهج

التي انطلقوا منها، وما يتعلق منها بالدعوة إلى العامية. من خلال منهج وصفي يقف مع هذه الظاهرة في وقتها، واصفاً مظاهرها ومحللاً أبعادها ودواعيها.

ولن تهدف هـذه الدراسة إلى الانتصار للمستشرقـين، أو الانتقاص منهم، بقـدر ما تهـدف إلى وضـع رؤية محايدة، تـبرز ما للمستشرقـين من جهد إيجابـي تجـاه العربية، ومـا كان منهم مـن دور سلبي تجاههـا، فضلاً عن التركيـز على منحى غالباً مـا يغفل عنه عند التعرض لدراسة الاستشراق والمستشرقين. وهو المنحى والبعد المنهجي.

وقـد انتظمت الدراسة في أربعـة مباحث مسبوقة بمقدمـة وتمهيد ومنتهية بخاتمة وفهارس. كما يلي:

التمهيد: الاستشراق.. مفهومه.. ونشأته.

المبحـث الأول: موقـف المستشرقين مـن العربية وجهودهـم في نشر التراث اللغوي.

المبحث الثاني: النظرة المنهجية للعربية بين اللغويين العرب والمستشرقين.

المبحث الثالث: أهم المناهج التـي سلكها المستشرقون في دراستهم للعربية، وآثارها.

المبحث الرابع: المستشرقون وأبعاد الدَّعوة إلى العاميَّة.

ويطمح البحث من خلال هذه المباحث تحقيق عدة أهداف منها:

- إظهار موقف المستشرقين من العربية والتراث اللغوي دون تهوين أو تهويل.
- مدى إفادة العربية من جهود المستشرقين.
- الجوانـب الإيجابيـة والسلبيـة التي انعكسـت على العربية مـن دراسات المستشرقين.

- نظرة المستشرقين المنهجية للعربية ومدى مغايرتها للنظرة العربية.
- المناهج التي استخدمها المستشرقون في دراسة العربية.
- الآثار المترتبة على دراسة المستشرقين للعربية.
- أبعاد الدعوة إلى العامية.

وفي النهايــة.. أســأل الله تعالــى أن يلهمنا الصواب في القــول والعمل.. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د. السيد عبدالحليم الشوبجي

تمهيد

الاستشراق.. مفهومه.. ونشأته

أولاً: مفهوم الاستشراق

المفهوم اللغوي للاستشراق:

يرجع مصطلح الاستشراق: إلى المادة الثلاثية (شرق)، بعد أن زيدت عليها الألف والسين والتاء (استشرق)، وهي زيادة تدل على الطلب.. فيصبح المعنى اللغوي: طلب التوجه إلى الشرق.

جاء في لسان العرب: شرق: شرقت الشمس تشرق شروقاً وشرقاً: طلعت، واسم الموضع: المشرق... والتشريق: الأخذ في ناحية المشرق، يقال: شتان بين مشرّق ومغرّب، وشرقوا ذهبوا إلى الشرق، وكل ما طلع من المشرق فقد شرق، وفي الحديث: (لا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ولكن شرقوا أو غربوا).[1]

وقد ذكر صاحب معجم اللغة: أن استشرق: (مولدة عصرية)، وأنها تعني: (طلب علوم الشرق ولغاتهم، ويقال لمن يعنى بذلك من علماء الفرنجة).[2]

ويرى أحد الباحثين أن كلمة استشراق لا ترتبط فقط بالمشرق الجغرافي، وإنما تعني أن الشرق هو مشرق الشمس، ولهذا دلالة معنوية بمعنى الشروق والضياء والنور، بعكس الغروب بمعنى الأفول والانتهاء.[3]

المفهوم الاصطلاحي:

تعددت تعريفات الاستشراق ما بين متوسع ومضيق، ولعل أوجز وأشمل تعريف للاستشراق هو: دراسة يقوم بها الغربيّون لتراث الشرق؛ وبخاصة كل ما يتعلق بتأريخه، ولغاته، وآدابه، وفنونه، وعلومه، وتقاليده وعاداته.[4]

---

(1) لسان العرب. جمال الدين ابن منظور (شرق) (10/ 173) دار صادر– بيروت ط: الثالثة – 1414هـ.

(2) معجم متن اللغة : الشيخ أحمد رضا. (310/3) الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت: 1378هـ– 1959م.

(3) السيد محمد الشاهد. الاستشراق ومنهجية النقد عند المسلمين المعاصرين (ص191–211) مجلة الاجتهاد. عدد 22، السنة السادسة، 1414هـ/1994م.

(4) المعجم الأدبي جبور عبدالنور، (ص17) دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.

ولا بـدّ لدراسـة هذا التراث مـن أداة؛ هـذه الأداة: هي إتقان لغـة الشّرق، والتخصّصـ بأبرزها آثاراً في التأريخ والفنـون والآداب والعلوم، وهي اللغة العربية لا ريب. لهذا يرى المستشرق الألماني (ألبرت ديتريش) أن المستشرق: هو ذلك الباحث الذي يحـاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتّى له الوصول إلى نتائج سليمة ما لم يتقن لغات الشرق.[1]

ويحصره بعض المستشرقين في دراسة اللغة على وجه الخصوص؛ حيث يرى (رودي بارت) أن الاستشراق هو (علم يختص بفقه اللغة خاصة...).[2]

ويعتمد المستشرق الإنجليزي آربري تعريف قاموس أكسفورد بأن المستشرق (من تبحّر في لغات الشرق وآدابه).[3]

الاستشراق عند المفكرين المسلمين والعرب:

ولـو انتقلنـا إلى العـرب والمسلمـين سنجـد إدوارد سعيد يخصـه بالجانب الأكاديمـي بقولـه: (أيسر التعريفـات المقبولة للاستشراق هـو: أنه مبحث أكاديمـي، بـل إن هـذا المفهوم لا يـزال مستخدمـاً في عدد مـن المؤسسات الأكاديميـة؛ فالمستشرق كل من يعمل بالتدريس أو الكتابة أو إجراء البحوث في موضوعـات خاصة بالشرق، سـواء كان ذلك في مجال الأنثروبولوجيا أي علم الإنسان أو علم الاجتماع أو التاريخ أو فقه اللغة، وسواء كان ذلك يتصل بجوانب الشرق العامة أو الخاصة؛ والاستشراق إذن وصف لهذا العمل).[4]

---

(1) الدراسـات العربيـة في ألمانيا، تطوّرها التأريخي ووضعها الحـالي البرت ديتريش: (ص 7)، جوتنجن / 1962م.

(2) الدراسـات العربيـة والإسلامية في الجامعات الألمانية (المستشرقـون الألمان منذ تيودور نولدكه). رودي بارت. ترجمة مصطفى ماهر (ص11). القاهرة: دار الكتاب العربي (د.ت).

(3) المستشرقـون البريطانيون. ا. ج. آربري. تعريب محمـد الدسوقي النويهي. (ص8) لندن: وليم كولينز، 1946م.

(4) الاستشراق، إدوارد سعيد ترجمة دكتور. محمد عناني (ص 45)، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، 2006م ط الأولى.

وفي موضع آخر يقول إنه: (أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى الشرق، وبين ما يسمى في (معظم الأحيان) الغرب).[1]

أو: (إنه المجال المعرفي أو العلم الذي يُتوصل به إلى الشرق بصورة منظمة كموضوع للتعلم والاكتشاف والتطبيق).[2]

ويضع له د. محمود حمدي زقزوق معنى عامّاً وواسعاً بقوله: (الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي، وكلمة (مستشرق) بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله؛ أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه).[3] ثم يضيف معنى خاصّاً بقوله: ولكننا هنا لا نقصد هذا المفهوم الواسع، وإنما كل ما يعنينا هنا هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذي يعني: (الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام. وهذا المعنى هو الذى ينصرف إليه الذهن في عالمنا العربي الإسلامي عندما يطلق لفظ استشراق أو مستشرق).[4]

من خلال هذه التعريفات المتعددة يمكن القول إن الاستشراق: هو دراسة متخصصة للشرق المتمثل في الإسلام وتراثه، من كل جوانبه ونواحيه، من خلال رؤية غربية، أياً كانت أهدافها.

وينحى كثير من الباحثين في تعريفهم ونظرتهم للاستشراق منحى دينياً عقدياً... ويرون (أن الاستشراق هو دراسة الإسلام والمسلمين والعرب من قبل غير المسلمين خاصة؛ بقصد التشويه والتشكيك فيه، لأن معظم بحوث هذه الفئة ودراساتهم تركزت عليها).[5]

---

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق (ص18). دار المعارف مصر.

(4) المرجع السابق.

(5) ينظر: لم الاهتمام بالاستشراق؟ شكري النجار. مجلة الفكر العربي، العدد (31 / 1983م) ص 71، والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص 18).

يقــول د. حمدي زقــزوق: (ويستطيــع كل باحث عــن تاريــخ الاستشراق أن يتبــين بما لا يدع مجالاً للشك أن الهــدف الديني كان وراء نشأة الاستشراق ودعــم الدراســات الإسلامية والعربيــة في أوروبا، وقد صاحــب الاستشراق طــوال مراحل تاريخه، ولم يستطع أن يتخلص منــه بصفة نهائية) ثم يبين أن الهــدف الديني مــن الاستشراق أخذ اتجاهات ثلاثــة متوازية هي: أولاً: محاربــة الإسلام والبحث عن نقاط ضعف فيه. ثانياً: حماية المسيحيين من خطره بحجب حقائقه عنهم. ثالثاً: التبشير وتنصير المسلمين.[1]

وقد بالــغ كثيرون في هذا المنحى، منهم: د. أحمــد عبدالحميد غراب الذي اختــار هــذا التعريــف للاستشراق: (دراســات أكاديمية يقــوم بها غربيون كافــرون –مــن أهل الكتــاب بوجه خاصــ– للإسلام والمسلمــين، من شتى الجوانــب عقيدة، وشريعــة، وثقافة، وحضــارة، وتاريخاً، ونظمــاً، وثروات وإمكانــات... بهــدف تشويــه الإســلام ومحاولــة تشكيــك المسلمــين فيــه، وتضليلهــم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهــم، ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراســات ونظريات تدعــي العلمية والموضوعية، وتزعــم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي).[2]

ومنهــم عبدالرحمن بن حســن حَبَنَّكَة، الذي يعرفه بقولــه: تعبير أطلقه غير الشرقيين على الدراســات المتعلقة بالشرقيين: (شعوبهم وتاريخهم وأديانهم ولغاتهــم وأوضاعهم الاجتماعية وبلدانهم وسائر أراضيهم وما فيها من كنوز وخــيرات وحضاراتهــم وكل مــا يتعلق بهــم). وكان هدف الغربيــين من هذا الإطلاق العام الذي يشمل كل الشرق والشرقيين، مسلمين أو غير مسلمين، أن

(1) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص 74، 75).

(2) رؤيــة إسلامية للاستشراق. أحمــد عبدالحميد غراب (ص 7). بيرمنجهــام: المنتدى الإسلامي، ط2. 1411هـ.

يكون غطاءً للهدف الأساسي، الذي هو دراسة كل ما يتعلق بالإسلام والمسلمين لخدمة أغراض التبشير من جهة، وأغراض الاستعمار الغربي لبلدان المسلمين من جهة أخرى، ثم لإعداد الدراسات اللازمة لمحاربة الإسلام وتحطيم الأمة الإسلامية وتجزئتها وتفتيت وحدتها، ثم توسعت الدراسات الاستشراقية بعد توسع الاستعمار الغربي في الشرق، فتناولت جميع ديانات الشرق وعاداته وحضاراته وجغرافيته وتقاليده ولغاته وكل ما يتعلق به.[1]

ولعل الذي دفع هؤلاء الباحثين إلى ذلك؛ هو ما لوحظ على عدد كبير من المستشرقين دأبوا على وصف القرآن بأنه نسيج من السخافات، وبأن الإسلام مجموعة من البدع، وبأن المسلمين وحوش. على حد تعبير محمد حسين هيكل؛ الذي نقل في مقدمة كتابه: (حياة محمد) كثيراً من هذه الافتراءات والأكاذيب التي ادعاها كثير من المستشرقين، خاصة في القرون الوسطى؛ حيث يقول: (وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة؛ فمنذ رودلف دلوهيم إلى وقتنا الحاضر قام نيكولادكيز، وقيقس، ومراتشي، وهوتنجر وببيلياندر، وبريدو وغيرهم، فوصفوا محمداً بأنه دجّال، والإسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها، وأنه من عمل الشيطان، والمسلمين بأنهم وحوش، والقرآن بأنه نسيج من السخافات).[2]

وهذا النوع من المستشرقين قد دفع تبشيرياً إلى الغض من مكانة القرآن والإسلام، لتقليل أهميتهما وزعزعة النفوس عنهما، وإسدال ظلال كثيفة قاتمة حول التاريخ الإسلامي.[3]

ونرى أن هذا تعميم فيه قدر من المبالغة؛ لأنه إن كان هناك مستشرقون

(1) أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها، (ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، عبدالرحمن بن حسن حَبَنَّكَة (ص 120) : دار القلم – دمشق الطبعة: الثامنة، 1420 هـ – 2000 م.

(2) حياة محمد: محمد حسين هيكل. (ص 30)، دار المعارف. مصر. الطبعة الرابعة عشرة.

(3) ينظر: المستشرقون والدراسات القرآنية. د. محمد حسين الصغير. (ص 14) دار المؤرخ العربي. بيروت لبنان. د. ت.

تحاملـوا وافـتروا على الإسـلام ونبيه وتراثه؛ فـإن هناك مـن المستشرقين المنصفـين من تكفلوا بالردّ على مثل هـذه المزاعم الكاذبة؛ التي تتجنى على القـرآن الكريم؛ منهـم: (السير وليام موير) في كتـاب (حياة محمّد): فقد تحـدث فيه عن منزلة القرآن ودقّة وصوله سالماً، وكان هذا خير ردّ على هذا التجنّـي، بل عـدَّه تهرّباً عن البحث العلمي الرّصـين. حيث يقول: (والنتيجة التـي نستطيـع الاطمئنان إلى ذكرها هـي أن مصحف زيـد وعثمان لم يكن دقيقاً فحسب، بل كان، كما تدلّ الوقائع عليه، كاملاً، وأن جامعيه لم يتعمدوا إغفـال أيّ من الوحي. ونستطيع كذلك أن نؤكد، استناداً إلى أقوى الأدلّة، أن كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمد).[1] وتبعه في ذلك عدد مـن المستشرقين كـ (الأب لامنس) و(هون هامر) وغيرهـم، فهؤلاء جميعاً يقطعون بدقة القرآن الذي نتلوه اليوم، وبأنه يحتوي كل ما تلاه محمد (صلى الله عليـه وسلـم) على أنـه الوحي الذي تلقاه مـن ربه صادقاً كامـلاً. فإذا ذهبت بعد ذلك قلة من المستشرقين غير مذهبهم وزعموا أن القرآن حرّف، غـير آبهين لهذه الأدلة العقلية التي ساقها (موير) وكثرة المستشرقين، والتي أخذوها عن التاريخ الإسلامي والعلماء المسلمين كان ذلك تجنياً على الإسلام لم يمله غير الحقد على الإسلام وعلى صاحب الرسالة الإسلامية.[2]

كمـا أن هناك فريقا مـن المستشرقين.. قد حاول جاهـداً الالتزام بالحيدة والموضوعيـة، وأنكر على كثير مـن زملائه نزواتهم التـي انحرفت بهم عن النزاهة العلمية.[3]

ويشير المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون Maxime Rodinson إلى حدوث ثورة في التفكير جعلت التقييم المسيحي لمحمد (صلى الله عليه وسلم) مسألة

(1) ينظر: (حياة محمد): محمد حسين هيكل. (ص 55).
(2) السابق.
(3) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص 76).

حساسة. فلم يعد بإمكانهم الزعم (الكاذب) بأنه (محتال شيطاني) كما كان عليه الحال في العصور الوسطى... بل إن بعض الكاثوليك المتخصصين بالإسلام يعتبرونه (عبقريّاً دينيّاً) بل يذهب بعضهم الآخر أبعد من ذلك؛ فأصبحوا يتساءلون عما إذا لم يكن بالإمكان اعتباره بطريقة ما نبيّاً حقيقيّاً... وأعجب بعض المسيحيين بالقيمة الروحية للتجارب الدينية الإسلامية وأزعجتهم مواقف الظلم التاريخية التي وقفتها شعوبهم من الإسلام كدين وكمجموعة من الشعوب التي تعرضت في الآونة الأخيرة للمذلة والاحتقار.(1)

يؤكد هذا ما يقوله محمد حسين هيكل: وأنت إذا طرحت جانباً أولئك المتعصّبين الحمقى الذين جعلوا النيل من محمد (صلى الله عليه وسلم) دأبهم كالمبشرين وأشباههم، فإنك واجد هذا الإجلال للعظمة والإيمان بقوتها في كتب العلماء المستشرقين واضحين جليين. عقد (كارليل) في كتابه (الأبطال) فصلاً عن محمد (صلى الله عليه وسلم)، صوّر فيه الجذوة الإلهية المقدّسة التي أوحت إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) ما أوحت؛ فصوّر العظمة في جلال قوّتها. و(موير، وإرفنج، وسبرنجر، وفيل)، وغيرهم من المستشرقين والعلماء قد صوّر كل واحد منهم عظمة محمد (صلى الله عليه وسلم) تصويراً قوياً؛ وإن وقف هذا أو ذاك منهم عند مسائل اعتبرها مآخذ على صاحب الرسالة الإسلامية، لغير شيء إلا أنه لم يمتحنها ولم يمحصها التمحيص العلميّ الدقيق.(2)

وبعض هؤلاء المستشرقين مخلص في بحثه على رغم خطئه؛ لكن الخطأ يتسرّب إلى بحثه لعدم دقته في إدراك أسرار اللغة العربية تارة، ولما يشوب

(1) تراث الإسلام (الجزء الأول). تصنيف جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث. ترجمة محمد زهير السمهوري، د. حسين مؤنس، د إحسان صدقي، (الصورة العربية والدراسات الغربية الإسلامية) (ص 76). الكويت: سلسلة عالم المعرفة، عدد (11) أغسطس 1978م.

(2) ينظر: (حياة محمد): محمد حسين هيكل. (ص 40).

نفوس طائفة من هؤلاء العلماء من الحرص على هدم مقرّرات دين من الأديان، أو على هدم مقرّرات الأديان جميعاً، تارة أخرى.[1]

نشأة الاستشراق وتطوره:

من الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق... وإن كان بعض الباحثين يؤرخ لبدء وجود (الاستشراق) الرسمي بصدور قرار مجمع فيينا الكنسي في عام 1312م، بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية، ولكن الإشارة هنا إلى الاستشراق الرسمي تدل على أنه كان هناك استشراق غير رسمي قبل هذا التاريخ.[2] من هنا اختلف الباحثون في نشأته وبدايته،[3] ربما بسبب اختلافهم حول مفهوم الاستشراق

---

(1) ينظر: السابق (ص 46).

(2) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص 76).

(3) ونلخص فيما يلي بعض تلك الآراء:

1 - هناك من قال: إن الاستشراق بدأ في القرن السادس قبل الميلاد، ويراد به زيارة الشرق والسفر إليه والاطلاع على تقاليده وتاريخه ثم الكتابة عنه، بغض النظر عن الجانب الديني أو السياسي أو العلمي؛ كالمؤرخ اليوناني الإغريقي (هيردوتس) الذي يعتبر أول مستشرق لأنه زار الشرق وكتب عنه في القرن السادس قبل الميلاد.

2 - وهناك من قال: إن الاستشراق بدأ في القرن السابع الميلادي في العهد الأموي حيث قام العالم النصراني يوحنا الدمشقي (686 - 749 م) بدراسة الإسلام بقصد التشويه والتشكيك، ولأجل حماية إخوانه النصارى. ومن كتبه: محاورة مع المسلم، وإرشادات النصارى في جدل المسلمين.

3 - وقال آخرون: إنه بدأ في القرن العاشر الميلادي، حيث توافد رجال من أوروبا إلى الأندلس، ودرسوا في جامعات المسلمين اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية، وكذلك الطب والكيمياء والفلسفة والرياضيات وغيرها من العلوم التجريبية، ثم قاموا بترجمة الكتب العربية إلى لغاتهم، وعلى رأسهم الراهب الفرنسي جربرت.

4 - وقيل: إنه بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي، وذلك حين ترجم الراهب الإنجليزي (هرمان) القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية عام 1143م، وكما صدر أول قاموس عربي-لاتيني في هذه الفترة.

5 - وقيل: بدأ الاستشراق في القرن الثالث عشر الميلادي، وذلك بعد انتهاء الحروب الصليبية التي بدأت عام 1095م، وانتهت عام 1291م بهزيمة نكراء للصليبيين، فتوجهوا إلى دراسة أسباب غلبة المسلمين وفوزهم. وهكذا بدأ الاستشراق.

6 - وقيل: بدأ في القرن الرابع عشر الميلادي، وهو بداية الاستشراق الرسمي، حيث صدر قرار من مجمع

أو بيان الأسباب والدوافع أو بداية الاستشراق بمحاولات فردية أو منظمة.

ولا شك أن هذه البدايات لا تعد البداية الحقيقية للاستشراق، وإنما تعد -كما يقول الدكتور علي النملة-: (من قبيل الإرهاص لها، وما أتى بعدها يعد من قبيل تعميق الفكرة، والتوسع فيها وشد الانتباه إليها).[1]

فالبداية الحقيقية للاستشراق الذي يوجد في العالم الغربي اليوم -ولا سيما بعد أن بنت أوروبا نهضتها الصناعية والعلمية، وأصبح فيها العديد من الجامعات ومراكز البحوث، وأنفقت ولا تزال تنفق بسخاء على هذه البحوث- قد انطلقت منذ القرن السادس عشر؛ حيث بدأت الطباعة

فيينا الكنسي عام 1312 م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدة جامعات أوروبية.

7 - وقيل: بدأ في القرن السادس عشر الميلادي، وهو ما يسمونه فترة الإصلاح الديني، وفيها بدأ اتصال الغرب المسيحي بالشرق المسلم اتصالاً اقتصادياً -سواء في كشف موارد الثروة فيه أو في استغلالها ونقلها إلى الغرب- في صورة تبادل تجاري أو في صورة أخرى.

8 - وقيل: بدأ في القرن الثامن عشر الميلادي أي بالتحديد بعد الحملة الفرنسية على مصر عام 1798م حين جاء نابليون إلى مصر، وحمل معه عدداً كبيراً من العلماء، كما حمل معه مطبعة عربية ساعدت هؤلاء العلماء في القيام بأبحاث متعددة وطبعها ونشرها.

تنظر تلك الآراء في: الاستشراق في الأدبيات العربية: عرض للنظرات وحصر وراقي للمكتوب. د. علي النملة. (ص 23-31) الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1414هـ/1993م. الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، د/ ساسي سالم الحاج (28/1) بيروت: دار المدار الإسلامي ط1 ،2002م. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص19). الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفى السباعي ص14. بيروت:المكتب الإسلامي، ط2/1972م. المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، د. محمد صالح البنداق: (ص90) بيروت: دار الآفاق الجديدة،1980م. الفكر الإسلامي الحديث، د. محمد البهي (ص532) بيروت: دار الفكر. ط:6 / 1973 م. الاستشراق: أهدافه ووسائله، د محمد فتح الله الزيادي (26) بيروت: دار قتيبة. ط2. 2002م. أساليب الغزو الفكري، د. علي جريشة وغيره، (ص 19) القاهرة: دار الاعتصام، ط1/ 1977م. المستشرقون والتاريخ الإسلامي، د. علي الخربوطلي: (ص 28) القاهرة: جمعية الدراسات الإسلامية،1976م. وينظر: الاستشراق أخطر تحد للإسلام. د. شاكر شوق. دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ، بنغلاديش (ص 66، 67) المجلد الثالث، ديسمبر 2006م.

(1) الاستشراق في الأدبيات العربية :عرض للنظرات وحصر وراقي للمكتوب. د. علي النملة. (ص30). وقد أورد الدكتور النملة معظم الآراء التي تتعلق بنشأة الاستشراق. ومال إلى الرأي القائل إن بدء الاستشراق كان من الأندلس في القرن الثامن الميلادي.

العربيـة فيه بنشـاط فتحركـت الدوائر العلميـة وأخذت تصـدر كتاباً بعد الآخـر، ثم ازداد النشـاط الاستشراقي بعد تأسيس كراسٍ للغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية؛ مثل كرسي أكسفورد عام 1638م، وكامبريدج عام 1632م...،[1] وكان تأسيس الجمعيـات العلمية؛ مثل الجمعية الآسيوية البنغاليـة، والجمعيـة الاستشراقيـة الأمريكية، والجمعية الملكيـة الآسيوية البريطانية، وغيرها، بمنزلة (الانطلاقة الكبرى للاستشراق؛ حيث تجمعت فيها العناصر العلمية والإداريـة والمالية؛ فأسهمت جميعها إسهاماً فعّالاً في البحث، والاكتشاف والتعرف على عالم الشرق وحضارته فضلاً عما كان لها من أهداف استغلالية واستعمارية).[2]

وكان مـن المشروعـات الاستشراقيـة المهمة إنشاء مدرسـة اللغات الشرقية الحيـة في فرنسا برئاسة المستشرق الفرنسي سلفستر دي ساسي Silvester de Sacy، التـي كانـت تعـد قبلـة المستشرقـين الأوروبيـين، وساهمـت في صبـغ الاستشـراق بالصبغة الفرنسيـة مدة من الزمـن، وإنشاء الجمعيات الاستشراقيـة، وأيضـاً بداية منظمـة المؤتمرات العالميـة للمستشرقين عام 1873م في عقد مؤتمراته السنوية.[3]

وعلى الرغم من أن الاستشراق يمتد بجذوره في التاريخ؛ فإن كلمة مستشرق (Orientalist) لم تظهـر في أوروبـا إلا في نهايـة القـرن الثامـن عشر؛ فقد ظهـرت أولاً في إنجلترا – كما يذكر المستشـرق الفرنسي مكسيم رودنسون Maxime Rodinson : عـام 1779م، وفي فرنسـا عام 1799م، وأدرج كلمة

(1) فلسفـة الاستشـراق وأثرهـا في الأدب العربـي المعاصـر. أحمـد سمايلوفيتش (ص77)، والاستشراق والاتجاهـات الفكريـة في التاريخ الإسلامـي، د. مازن بن صلاح مطبقاني (ص14). الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1995م.

(2) فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر (ص 81).

(3) . المستشرقون. نجيب العقيقي (1/140). القاهرة: دار المعارف بدون تاريخ.

الاستشـراق (Orientalisme) في قاموس الأكاديميـة الفرنسية (Dic. de l'Academie Francaise) عام 1838م.[(1)]

ويشـير رودنسـون إلـى أن الاستشـراق إنما ظهـر للحاجة إلـى إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفـة لدراسة الشـرق ويضيف بـأن الحاجة كانت ماسة لوجود متخصصـين للقيام على إنشاء المجلات والجمعيات والأقسام العلميـة. (فقد أخذت فكرة إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق تلقى المزيد من التأييد، ولم يكن هنالك حتى ذلك الوقت أخصائيون بأعداد تكفي لتأسيس مجلات أو جمعيات تهتم حصراً ببلد واحد أو بشعب واحد أو منطقة واحدة في الشـرق، وبـدلاً من ذلـك كان نطـاق المجلات والجمعيـات يمتد ليشمل عدة مجـالات، وإن لم تحظ جميعها بدرجة العمق نفسهـا في البحث، لذا كان العالم مستشرقـاً). ومفهوم الاستشراق (يشير إلى تعمق أكثر في الدراسة).[(2)]

وهـذا المصطلح لا يعني شيئاً أكثر من إقـرار أمر واقع، وإطلاق وصف على الدراسـات التي كانت قائمة بالفعـل قبل ذلك بقرون عديدة. من هنا فليس هناك تعارض بين ما قيل من امتداد الدراسات الاستشراقية قبل ظهور هذا المصطلح، وبين ظهوره كمصطلح يطلق على هذا النوع من الدراسات.[(3)]

(1) تـراث الإسـلام (الجـزء الأول). تصنيـف جوزيف شاخـت، وكليفورد بـوزورث. ترجمـة محمد زهير السمهـوري، د. حسين مؤنس، د إحسان صدقـي، (64). وينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص 20).

(2) تـراث الإسـلام (الجـزء الأول). تصنيـف جوزيف شاخـت، وكليفورد بـوزورث. ترجمـة محمد زهير السمهوري. (ص64).

(3) ينظر: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص20).

المبحث الأول

موقف المستشرقين من العربية
ودورهم في نشر التراث اللغوي

توطئة:

كانـت اللغة العربية مادة خصبة لموضوع الاستشراق، وطغت هذه المادة على مـا سواها، ذلك أنها وعاء الإسلام وشريعته وتراثه؛ فكان الاهتمام بها من جانـب المستشرقـين؛ لأنها المدخل الرئيسـ لدراسة الإسـلام وتراثه، وكان هـذا هو الهدف الأسمـى للمستشرقين علـى اختلاف أغراضهـم ومآربهم ومشاربهم.

ولقـد قدّر للقـرآن الكريم أن يحتضن الإسلام واللغـة العربية بوقت واحد، حتـى أضحى القرآن أغنى المواضيع عند المستشرقين على الإطلاق، فبحثوا جزئيّاتـه وكلّياته، وانصبّـت بحوثهم الأكاديمية حوله بشـكل يلفت النظر، ويستوقف الباحث.[1]

وقـد تنـاول الباحثـون في الاستشـراق أهـداف وأغراضـ المستشرقين من دراسـة الإسـلام وتراثـه عمومـاً، وتعددت هـذه الأهداف، مابـين أهداف دينية، وسياسية، وعلميـة، واقتصادية، وثقافية... إلخ، ولعل هذه الأهداف كلهـا كانـت مقصودة من جانب المستشرقين؛ ذلـك أنه من الطبيعي في ظل نفـوذ الحضارة الغربية الذي تزامن مع انحسار واضح للحضارة الإسلامية التـي امتلكت زمام الريـادة لقرون عديدة؛ طبيعي أن تكـون هذه الحضارة مـادة خصبـة للدراسة، أياً كان الدافـع سواء كان دافعاً علميـاً أم دينياً أم سياسيـاً... إلخ. أو بهـدف النيل من تراثها العقـدي والديني، ومن ثقافتها كمقدمـة لمكاسـب سياسيـة واقتصاديـة، وذلـك للهيمنة والسيطـرة على مقـدرات شعوبها. ومـع هذا فإن الأمـر لم يخل من مستشرقـين حاولوا أن يلتزموا الحيدة وينتهجوا نهجاً علمياً بعيداً عن خلفيات عقدية أو فكرية.

---

(1) المستشرقون والدراسات القرآنية. دكتور محمد حسين علي الصغير (ص12).

فئات المستشرقين:

يــرى د. حمدي زقــزوق أن المستشرقين فئات مختلفة تــتراوح بين التعصب والإنصــاف؛ فمنهــم: طــلاب للأساطير والغرائــب افتروا علــى الإسلام، واخترعــوا بخيالهم المريضــ حولــه الأقاصيص الكاذبة. ومنهــم: مرتزقة جندوا دراساتهم وبحوثهم في خدمة المصالح الغربية الاقتصادية والسياسية والاستعماريــة. ومنهــم: متغطرســون أخذتهــم العزة بالإثــم، وابتعدوا عن النزاهــة العلميــة. ومنهــم: باحثــون علميون، ولكنهــم انحرفــوا عن جادة الصــواب، فراحوا يتلمسون نقاط الضعــف في الإسلام، يشككون في القرآن الكــريم، وفي الحديث النبوي الشريف، وفي قيمة الفقه الإسلامي، وفي قدرة اللغة العربية على مسايرة التطور وغيرها. ومنهم: من التزموا في دراستهم للإســلام بالموضوعية والنزاهة العلميــة، فأنصفوا الإسلام والمسلمين، وقد أدى الأمــر ببعضهم إلى اعتناق الإسلام والدفــاع عنه. ومنهم: من تفرغوا لدراسة اللغة العربية وفقه اللغة والأدب العربي أو اشتغل بالمعاجم وما شابه ذلك، ولهؤلاء بحوث قيمة مفيدة في هذا المجال.[1]

ويمكن إرجاع هذه الفئات إلى اتجاهين مختلفين:

الاتجــاه الأول: هو اتجاه متعصــب -بدرجات متفاوتة- يقــف من الإسلام وتراثــه عمومــاً موقفــاً متحامــلاً ومتجنيــاً في أحكامه، فضلاً عــن النظرة السلبية للتراث الإسلامي عموماً.

والثاني: اتجاه منصف -بدرجات متفاوتة أيضاً- يعمل لتعريف الغرب بالإسلام، ويقف من تراثه موقفاً محايداً، منطلقاً من منهجية قد تتوافق معطياتها مع روح الوحي، وقد تختلف وفقاً للتصورات المنهجية التي انطلقوا منها.

---

(1) بتصرف من: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص 78، 79).

وقـد تفاوت لذلك موقف المستشرقين من التراث اللغوي تبعاً لتوجههم؛ ففي الوقت الـذي وقف طرف منه موقفـاً إيجابياً يتسـم بالحيادية والإنصاف، وقـف طرف آخر موقـف المشكك فيه والمتحامل عليـه؛ فكانت مواقفه تتسم بالسلبية تجاه التراث عموماً واللغوي على وجه الخصوص.

الموقف الإيجابي من العربية والتراث اللغوي:

أدرك المستشرقـون أهميـة اللغة العربية ووقفوا علـى أثرها في وحدة الأُمَّة الإسلاميَّـة؛ فقـد نُقل عن (بوستل) قوله عن اللغـة العربية: (... إنَّها تفيد بوصفهـا لغة عالميَّـة في التعامل مع المغاربة والمصريـين والسوريين والفرس والأتراك والتتـار والهنود، وتحتوي على أدب ثري، ومن يجيدها يستطيع أن يطعـن كل أعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتـاب المقدس، وأن ينقضهم بمعتقداتهـم التـي يعتقدونهـا، وعـن طريق معرفـة لغة واحـدة (العربية) يستطيع المرء أن يتعامل مع العالم كله).[1]

ويتباهـى (بوستل) أنَّـه يقطع العالم الإسلامي من أقصـى غربه إلى تخوم الصين دون حاجـة إلى مترجم،[2] وما ذلك إلا لأنه حذق العربية لغة العالم حينذاك.

ويعترف أغلب المستشرقين بأنَّ القرآن الكريم هو سبب عالميَّة اللغة العربية، من هؤلاء ما قاله (كارل بروكلمان): بلغت العربيَّة بفضل القرآن من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه أيُّ لغة أُخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعاً مؤمنون بأن العربية وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلاتهم.[3]

---

(1) المرجع السابق: (ص 30).

(2) المرجع السابق، والاستشراق. إدوارد سعيد: (ص 81).

(3) ينظـر: مـن قضايا اللغة العربية المعاصرة – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ص 274)، إدارة الثقافة، 1990م.

ويقـول (برنارد لويس): (وقد وجـد الطلبة الإنكليز في الهند لدى دراستهم لغات مسلمي الهنـد ومدنيتهم، أن أبحاثهم وتنقيباتهم تحتم عليهم دراسة العربية التي هي أساس الثقافة الإسلاميَّة في أيِّة لغة من اللغات).[1]

هذا فضلاً عن توافر عدد كبير من المستشرقين على تعلم العربية ودراستها ودراسـة علاقتهـا بالإسلام وكل ما يتصـل بها من قريـب أو بعيد، فبحثوا في فقههـا، وأصواتها، ولهجاتها، ونحوها، وصرفهـا، وأصولها، ومعاجمها، وأطوارهـا، وغزارتهـا، ومادتهـا، وفلسفتهـا، وعلاقاتها باللغـات الأخرى، وخاصة اللغات الساميَّـة، ومميزاتها وعناصرها، وتاريخها، ونقوشها، وكل ما أنتجته هذه اللغة.[2]

ونذكـر فيمـا يلي بعض المهتمـين بالدراسـات اللغويَّـة العربية مـع بعض مؤلفاتهم:

- يوهـان فك: العربية (دراسـات في اللغة واللهجـات والأساليب)... اهتم المؤلـف في هذا الكتاب بدراسة العلاقة بين الإسـلام واللغة العربية، ودرس خصائصهـا وارتباطها بالقـرآن الكريم، وتطورها بعد وفـاة الرسول صلى الله عليـه وسلم، وحياتها في العهد الأمـوي، وأطوارها في العهد العباسي... وسيطرتهـا على العالم الأدبـي والعلمي والفكـري، ولهجاتهـا وفصاحتها، وظهـور اللغات الدارجة، والعلاقات اللغويَّـة في المحيط الإسلامي... وبداية مرحلتهـا الحديثـة بحملة نابليـون، ومشكلة اللحن وأطوارهـا، وغيرها من المسائل الهامة التي تختص بهذه اللغة.[3]

(1) المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويَّة، إسماعيل أحمد عمايـرة: ص20. دار حنين. عمان. الأردن. ط: الثانية 1992م.

(2) فلسفة الاستشراق. أحمد سمايلوفتش: (ص 184).

(3) المرجع السابق: (ص 184).

– إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية... بحث في اللغة العربية ومنزلتها بين اللغات السامية الأخرى، ثُمَّ في اللهجات العربية البائدة واللهجات العربية الباقية، مشيراً إلى المنهج العلمي لعلماء الاستشراق في دراستهم للغة العربية وما يتعلق بها.[1]

– هنري فليش: العربيَّة الفصحى... درس اللغة العربية بإسهاب... واهتم بدراستها من جوانبها الصوتيَّة والصرفيَّة والاشتقاقيَّة.[2]

– يوسف جبرا: تاريخ دراسة اللغة العربيَّة بأوروبا، بحث في تاريخ دراسة العربية بأوروبا قديماً وحديثاً، واهتمام علماء الاستشراق بها ومتعلقاتها.[3]

ومن المستشرقين من اهتم اهتماماً كبيراً بالمعجم العربي كشفاً وتحقيقاً ونشراً، ودراسة،[4] ومن هؤلاء:

– ما ثيو لمسدن: نشر القاموس المحيط لمجد الدين الفيروزآبادي.

– إدوارد وليام لين: له مد القاموس، وهو معجم عربي إنجليزي... وقد ضمن مقدمته وصفاً لعدد غير قليل من المعاجم العربية القديمة جاء في الإيجاز والإفادة.[5]

– وليام رايت: له جرزة الحاطب وتحفة الطالب، وهو اسم مجموعة تحتوي على: صفة السرج واللجام لابن دريد، وصفة السحاب والغيث لابن دريد أيضاً، وتلقيب القوافي لابن كيسان.[6]

---

(1) المرجع السابق: (ص 184).

(2) المرجع السابق.

(3) المرجع السابق.

(4) ينظر: معجم المعاجم (تعريف بنحو ألف ونصف ألف من المعاجم العربية التراثية): أحمد الشرقاوي إقبال، (مقدمة الكتاب). ط الثانية 1993م، دار الغرب الإسلامي- بيروت.

(5) المرجع السابق.

(6) المرجع السابق.

– فريتس كرانكو: له بواكير المعاجم العربية حتى عصر الجوهري... ونشر: المأثور فيما اتفق لفظه واختلف معناه.[1]

– آرثر ج. أربري: نشر تمام الفصيح لابن فارس.[2]

– المستشرق الألماني (فيشر) وجهوده في وضع فكرة: المعجم اللغويّ التاريخيّ ويُعـدّ معجم فيشر من أفضل معاجم المستشرقـين التي أثّرت في الدراسات المعجميّـة العربيّة. وكانت بداية مشروعه في أوائـل القرن العشرين، عندما عرض فكرته في ثلاثة مؤتمرات استشراقيّة في بازل عام 1907م، وكوبنهاكن عـام 1908م، وأثينـا عام 1912م، حيث لقـي قبولاً واستحسانـاً، واستعان ببعضـ الجهـود التمهيديّة التي قام بها قبله بعض أساتـذة العربيّة بالقسم العربيّ بجامعة ليبزج، مثل: هينريش ليبرشت فليشر، وهينريش توربيكه.[3] وابتـدأ فيشـر بالعمل في معجمـه مدعوماً دعماً متقطّعاً مـن بعض الجهات الألمانيّـة، وعندما أصبـح فيما بعد عضواً في مجمع اللغـة العربيّة بالقاهرة تيسّـر له طرح فكرته على أعضاء المجمع، وبعد مداولات وطرح لآراء عديدة وافق المجمع، والحكومة المصريّة على تبني هذا العمل وتحمل تكاليفه.[4]

وعهد إليه مجمع اللغة العربية بنشر هذا المعجم، ولكن الموت حال بينه وبين إتمـام عمله. وقـد أحياه بعد ذلك مـن الألمان الأساتـذة شبيتالر، وكريمر،

(1) المرجع السابق.

(2) المرجع السابق.

(3) ينظـر: معجم اللغة العربية الفصحى– مانفريد أولمان (ص 331). ضمن كتاب: ألمانيا والعالم العربي، دراسـات تتنـاول الصلات الثقافية والعلميـة والفنية بين الألمان والعرب – حققـه بالألمانية أ. د. هانس روبـرت رويمـر، ترجمـه د. مصطفـى ماهر، د. كمـال رضـوان. كما ينظـر: (المعجـم التاريخيّ لدى المستشرق الألماني أوجست فيشر: دراسة تقويمية إعداد: عبدالعزيز بن حميد بن محمد الحميد. بحث مقدّم إلى (ندوة المعجم التاريخي للغة العربية – قضاياه النظرية والمنهجية والتطبيقية) فاس 23–25 ربيع الثاني1431هـ / 8 10– أبريل 2010 م.

(4) المرجع السابق.

وأولمان، فقامـوا بجمع المادة التي تركها فيشر وغيره من العلماء، واستعانوا بعـدد من أهل التخصص في هذا الميدان. وقد خرجت أول كراسة منه سنة 1957م (مـن أول حـرف الـكاف). كما أن مجمـع اللغة العربيـة بالقاهرة أصـدر منه بعـد وفاته جزءاً صغـيراً. وعلى الرغم مـن أن معجم فيشر لم يخـرج إلـى حيز الوجـود؛ فإن اهتمام فيشـر بنشر معجم للغـة العربية قد حملـه علـى التنقيـب في أمهات كتب النحـو العربي وشـروح شواهده لجمع المـادة اللازمة لبدء عمله. وكانـت حصيلة ذلك كتابه: (الشواهد النحوية) الذي نشره في سنة 1945م، وهو يُعَدُّ أداة طيبة لدراسة هذه الشواهد. وكان مـن الطبيعي أن يصحب اهتمامه بالدراسات اللغوية اهتمامه بنص القرآن الكـريم، فنشر دراسة عـن (قيمة التراجم المعروفة للقـرآن)، ودراسة عن (القرآن عند أبي العلاء المعري).[1]

ويقـوم المنهـج الذي سلكه فيشـر مستكملاً درب أستـاذه هينريش ليبرشت فليشر علـى: الاستناد الوثيق إلى الشواهد اللغويـة العربية في المقام الأول، وإلـى أعمال اللغويين والنحاة العرب، والابتعاد عـن الفروض التي قد تكون بارعة لكنها واهية الأساس.[2]

وقد بـذل هـؤلاء المستشرقـون وغيرهم من مختلـف الجنسيـات الأوروبية والأمريكيـة والروسيـة- جهـوداً كبـيرة في خدمة المعجـم العربي في مجال التحقيـق والترجمـة والنشـر.[3] ومـن المستشرقـين من شـارك في المجامع

(1) المجمعيون في خمسة وسبعين عاماً. إعداد: محمد مهدي علام، د. محمد حسن عبدالعزيز. (ص 576-578). القاهرة: مجمع اللغة العربية. 2007م.

(2) موسوعـة المستشرقـين. د. عبدالرحمن بـدوي (ص 403). دار العلم للملايين. بـيروت. لبنان. الطبعة الثالثة. يوليو 1993م.

(3) ينظـر: معجم المعاجم (تعريف بنحو ألف ونصف ألف مـن المعاجم العربية التراثية): أحمد الشرقاوي إقبـال، (مقدمـة الكتاب). وقد أورد أكثر من ثلاثين مستشرقاً من مختلـف البلدان الغربية ومؤلفاتهم في المعاجم اللغوية العربية.

اللغويــة العربية في كل من مصــر ودمشق وبغداد وغيرها وأسهم بجهوده في خدمة تلك المجامع.[1]

منهــم أيضــاً المستشرق (عبدالكــريم جرمانوس) وهو عــالم مجري اعتنق الإسلام في الهند، ولد سنة (1885م) وتوفي سنة (1979م) وكان يتمنى أن يعيش مائة عام، لأن اللغة العربية في رأيه تحتاج إلى مائة سنة لفهمها. كان عضواً في المجمع اللغوي في القاهرة. أحب الإسلام واللغة العربية وخدمهما. ألــف أكثر من مائة وخمسين كتاباً عــن الإسلام، منها: الله أكبر. الحركات الحديثــة في الإســلام. شوامــخ الأدب العربي. معاني القــرآن. دراسات في التركيبات اللغوية العربية. وقد أجــاد عدة لغات منها الإنكليزية والفارسية والأردية والتركية مع العربية.[2]

وقــد نقــل دكتور أنــور الجندي عنــه قولــه: إنّ في الإسلام سنــداً هامّاً للغة العربيــة أبقى علــى روعتها وخلودها، فلــم تنل منها الأجيــال المتعاقبة على نقيض مــا حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينيــة حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد. ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبســت آلافــاً من الكلمات العربيــة ازدانت بها لغاتهــا الأصلية فازدادت قــوةً ونمــاءً. والعنصر الثــاني الــذي أبقى على اللغــة العربية هــو مرونتها التــي لا تُبــارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيــع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجــة التي كان يتحدث بها أجــداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون

(1) ينظــر: مستشرقــون (سياسيون، جامعيــون، مجمعيون). نذير حمدان: (ص 137)، مكتبة الصديق– الطائف. ط الأولى 1408هـ– 1988م.

(2) أجنحــة المكر الثلاثــة وخوافيها ،(ودراسة منهجية شاملة للغزو الفكري)، عبدالرحمن بن حسن حَبَنَّكَة (ص 133).

يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام.[1]

جهود المستشرقين في نشر التراث عموماً والتراث اللغوي خصوصاً

وكان من أبرز جهود المستشرقين في نشر التراث عموماً والتراث اللغوي خصوصاً ما يلي:

1 - جمع المخطوطات العربية:

اهتم المستشرقون منذ زمن طويل بجمع المخطوطات العربية من كل مكان في بلاد الشرق الإسلامي، وكان هذا العمل مبنياً على وعي تام بقيمة هذه المخطوطات التي تحمل تراثاً غنيّاً في شتى مجالات العلوم. وكان بعض الحكام في أوروبا يفرضون على كل سفينة تجارية تتعامل مع الشرق أن تحضر معها بعض المخطوطات، وقد ساعد الفيض الهائل من المخطوطات المجلوبة من الشرق على تسهيل مهمة الدراسات العربية في أوروبا وتنشيطها. ومنذ حملة نابليون على مصر عام 1798م تزايد نفوذ أوروبا في الشرق، وساعد ذلك على جلب الكثير من المخطوطات، وكانت الجهات المعنية في أوروبا ترسل مبعوثيها لشراء المخطوطات من الشرق. فعلى سبيل المثال أرسل (فريدريش فيلهلم الرابع) ملك بروسيا (ريتشارد ليبسيوس) إلى مصر عام 1842م، و(هينريش بترمان) عام 1852م إلى الشرق لشراء مخطوطات شرقية. وقد تم جمع المخطوطات من الشرق بطرق مشروعة وغير مشروعة، وقد لقيت هذه المخطوطات في أوروبا اهتماماً عظيماً، وتم العمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة، وفهرستها

---

(1) الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي (ص 301)، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1402 هـ — 1982م. وقد نقل د. أنور الجندي في كتابه (الفصحى لغة القرآن) مجموعة من آراء كتاب الغرب عن اللغة العربية الفصحى منهم: عبدالكريم جرمانوس، ولويس ماسينيون، وجان بيرك، وريجستير بلاشير، وبروكلمان... وغيرهم.

فهرسة علميــة نافعة تصف المخطوط وصفاً دقيقــاً، وتشير إلى ما يتضمنه مــن موضوعات وتذكــر اسم المؤلــف وتاريخ ميــلاده ووفاته وتاريــخ تأليف الكتاب أو نسخه... إلخ.

وقــد قــام مثــلاً ألــوارد Ahlwardt بوضع فهرســ للمخطوطــات العربية في مكتبــة برلين في عشرة مجلدات بلــغ فيه الغاية فناً ودقــة وشمولاً، وقد صدر هــذا الفهرس في نهاية القرن الماضــي واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط. وقد قام المستشرقون في الجامعات والمكتبات الأوروبية كافة بفهرسة المخطوطــات العربية فهرسة دقيقة، وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف، بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف.

وهناك دراسات للمستشرقين عن هذه المخطوطات في مجالات عديدة وعلى سبيل المثال قامت باحثة من المستشرقين بإعداد بحث عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر.[1]

2 - التحقيق والنشر:

ولم يقتصــر عمل المستشرقين على جمع المخطوطــات وفهرستها، بل تجاوز ذلك إلى التحقيق والنشر؛ فقد قاموا بتحقيق الكثير من كتب التراث وقابلوا بــين النســخ المختلفــة ولاحظوا الفــروق وأثبتوهــا ورجحوا منها مــا حسبوه أصحها وأعدلها، وأضافــوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام أثبتوها في أواخر الكتب التي نشروها، وقاموا في بعض الأحيان بشــرح بعض الكتب شرحاً مفيداً.

وهكــذا استطاعوا أن ينشروا عــدداً كبيراً من المؤلفــات العربية، كانت عوناً كبــيراً للباحثين الأوروبيين مــن المستشرقين وغيرهم من بــلاد الشرق. وقد

(1) بتصرف من: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. حمدي زقزوق (ص 62).

عرفنا الكثير من كتب التراث اللغوية وغيرها محققاً ومطبوعاً على أيديهم... إضافة إلى عدد هائل من دواوين الشعر العربي في عصوره المختلفة.[1]

3 - الترجمــة:

ولم يقتصــر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضاً بترجمة مئات الكتــب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة، فقد نقلوا إلى لغاتهم الكثير من دواوين الشعر... ومئــات الكتب في اللغة والأدب والتاريخ والعلوم الإسلاميــة المتعددة، هذا فضلاً عما ترجم في القرون الوسطى من مؤلفات العرب والمسلمين في الفلسفة والطب والفلك وغير ذلك من علوم.

كما قام المستشرقون منذ ذلك الوقت وحتى الآن بإعداد العديد من ترجمات القــرآن إلى اللغات الأوروبية كافة، وقد مهدوا لترجماتهم بمقدمات وضعوا فيها تصوراتهم عن الإسلام، وبذلك أعطوا للقارئ من بادئ الأمر تصورهم الــذي لا يتفق في معظم الأحيان مع الحقائق الإسلامية، بل قد يصطدم مع هذه الحقائق اصطداماً جوهرياً.[2]

4 - التأليف:

تعددت مجالات التأليف في الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين، ولم يتركوا مجــالاً من مجالات العلوم العربية والإسلاميــة إلا وألَّفوا فيه.[3] وقد أشرنا إلى عدد من هذه المؤلفات حول التراث اللغوي عموماً.

(1) السابق (ص 64).

(2) السابق (ص 66).

(3) السابق (ص 67 وما بعدها).

الموقف السلبي من العربية والتراث اللغوي

وإلى جانب هذه الصورة الإيجابية لعدد من المستشرقين وجهودهم في بعث التراث اللغوي والاعتراف بفضل العربية، كان هناك جانب آخر سلبي... فقد قام بعض المستشرقين بإثارة شبهات حول اللغة العربية للنيل منها، ومن ذلك:

1 - التشكيك في أصالة الأدب العربي:

من الآثار السلبية للاستشراق، التشكيك في مصادر الأدب العربي كالشعر الجاهلي والشعراء الجاهليين؛ فقد أنكروا أن للشعر الجاهلي في تاريخ الأدب العربي حقبة خاصة من الزمن وقالوا: إن القصائد المسمّاة بالمعلقات لم تكن صادرة من شعراء قبل ظهور الإسلام، مثل امرئ القيس أو شاعر آخر من أصحاب المعلقات كما نعرفهم، بل هي من أشعار الرواة أنفسهم، وعلى رأسهم حمّاد الراوية وخلف الأحمر؛ فإنهم كانوا يصنعون الشعر وينسبونه إلى رجال في الجاهلية وصدر الإسلام، أو كانوا ينحلون شعر الرجل غيره، أو ينحلون الرجل غير شعره، ويزيدون في الأشعار من عندهم.

ومن المستشرقين الذين طرحوا هذه الفكرة، وحاولوا أن يثبتوها وينقلوها إلى علماء العرب وأدبائهم: مرجليوث ونولدكه وتشارز ليال وجولدتسيهر وغيرهم؛ فإنهم خلّفوا وراءهم آثاراً كثيرة في هذا المجال.[1]

ويعد مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته؛ إذْ كتب فيها مقالاً مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يولية سنة 1925م، جعل عنوانه: (أصول الشعر العربي: The Origins of Arabic Poetry).

---

(1) آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية. محمد خليفة حسن، (ص116وما بعدها) القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. (ط1). 1997م.

ومن أبرز ما أثار مرجليوث في مقاله المذكور من زعم قوله: لو أنّ هذا الشعر صحيح لمثّل لنا لهجات القبائل المتعدّدة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب.(1)

وقد أيد هذه الفكرة عدد من الأدباء العرب المعاصرين، وحذَوا حذوَ المستشرقين في ذلك؛ منهم: دكتور طه حسين. والدكتور عبدالرحمن بدوي الذي دعم وأيد هذه الفكرة وجمع آراء هؤلاء المستشرقين، وترجمها إلى اللغة العربية؛ في كتابه الذي سماه: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي.(2)

وقد رفض عدد من الأدباء والكتّاب البارزين ونقدوا هذه الفكرة، كان منهم: مصطفى صادق الرافعي في كتابه: (المعركة تحت راية القرآن). ود. شوقي ضيف في كتابه: (العصر الجاهلي)، وغيرهم.

يقول الدكتور شوقي ضيف مدحضاً زعمهم: إنّ لغة القرآن الفصحى كانت سائدةً في الجاهلية وأنّ الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية؛ فكان الشعراء ينظمون بها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب في عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم.(3)

وخطورة الأمر: أنّ هؤلاء المستشرقين ومن تابعهم حين أثاروا هذه القضيّة كانوا يرمون إلى مرمى خبيث؛ حيث عرفوا مكانة الشعر الجاهلي، وأدركوا أنّ علماء المسلمين منذ الصدر الأول للإسلام قد شعروا بحاجتهم إلى الشعر

(1) ينظر: قضية الانتحال في الشعر الجاهلي. دكتور محمد بلاسي. مجلة الداعي الشهرية الصادرة من الجامعة الإسلامية دار العلوم. ديوبند. جمادى الثانية: 1431هـ. مايو - يونيو 2010م، العدد : 6، السنة : 34.

(2) دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي. عبدالرحمن بدوي (ص 5 وما بعدها) بيروت: دار العلم للملايين. ط الأولى 1979م.

(3) العصر الجاهلي: للدكتور شوقي ضيف، (ص 164)، ط الثامنة. دار المعارف، (د. ت).

العربيّ؛ للاستعانة به في فتح مغاليق الألفاظ والأساليب الغريبة الموجودة في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة؛ فأكبوا عليه يروونه ويحفظونه ويدرسون أساليبه ومعانيه، وما يدور فيه من ذكر لأيام العرب ووقائعهم. ولولا هذا الباعث الديني؛ لاندثر الشعر الجاهلي، ولم يصل إلينا منه شيء.[1]

يقرّر هذه الحقيقة أبو حاتم الرازي؛ فيقول: (ولولا ما بالناس من حاجة إلى معرفة لغة العرب، والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن، وأحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، والصحابة والتابعين، والأئمة الماضين؛ لبطل الشعر، وانقرض ذكر الشعراء، ولعفى الدهر على آثارهم، ونسي الناس أيامهم).[2]

ويقول ابن عباس رضي الله عنه: (إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر؛ فإن الشعر ديوان العرب).[3]

وقد أدرك هؤلاء المستشرقون هذه الحقيقة؛ فعملوا على رفضه؛ حتى يغلقوا علينا باباً من أهم الأبواب لفهم كتاب الله المجيد.[4]

2 - التشكيك في أصالة النحو العربي:

شكّك بعض المستشرقين في أصالة النحو العربي، وقالوا إن جذور هذا العلم ترجع إلى اللغة اليونانية والسريانية، وإنما أخذه العرب من اليونان والرومان خلال ترجمة الآثار اليونانية. وزعموا أن ارتباطاً علمياً وفكرياً

---

(1) فصول في فقه العربية: د. رمضان عبد التواب، (ص 111)، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة السادسة سنة 1420هـ.

(2) كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازي. تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني (ص 123)، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء. ط الأولي 1415هـ. 1994م.

(3) الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. (2/ 67): الهيئة المصرية العامة للكتاب: 1394هـ/ 1974م.

(4) ينظر: قضية الانتحال في الشعر الجاهلي. دكتور محمد بلاسي. مجلة الداعي. العدد: 6، السنة: 34.

كان دائـراً بين علماء علم النحو العربـي مثل: الخليل بن أحمد وأبي الأسود الـدؤلي من جهة، ويعقوب الرّهـاوي وحُنين بن إسحـاق -علماء علم النحو اليونـاني- من جهـة أخرى. والقصد مـن خلق هذه الشبهة إنـكار حضارة الإسـلام والعرب، وبقاء الحضارة اليونانية كحضـارة أولى في العالم. ومن جملة هـؤلاء المستشرقين الذين طـوّروا هذه الفكرة ووسعوهـا هم: إرنست رينان، ميركس وهرفمان ووِرستِك.

ولكـن المستشـرق الهولنـدي تُروبـو ردّ هـذه النظريـة، واتهم مـن أثاروها بالتعصب واستند على أدلة تاريخية؛ منها:

أولاً: إن حركـة الترجمة بدأت في العصـر العباسي الثاني، وعلم النحو كان قد بدأ قبل سنين.

ثانيـاً: علماء علم النحو كانوا علـى صلة دائمة مع الفقهاء، ولهذا نجد أكثر المصطلحـات الفقهيـة موجـودة في النحو؛ مثـل: بدل، عرض، نيـة، حجّة، حسَن، قبيح... وغيرها.[1]

3 - التشكيك في قدرة اللغة العربية على تعاملها مع العلوم الحديثة:

لم ينحصر هجوم المستشرقين علـى اللغة العربية من خلال إثارة الشبهات حول أصالتها في التاريخ القديم والعصور العربية المختلفة، بل استمر ليطال العربيـة الحديثـة، حيث اتهموهـا بأنها لغـة عاجزة عن الوفـاء بمتطلبات العصـر الحديث، وغير قـادرة على مُواكبـة التقدّم العلمـي والتكنولوجي. ووصـل الأمـر ببعضهم إلى اعتبار اللغـة العربية لغةً ميتـةً، مثلُها مثل اللغة اللاتينية بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة.

كما اتهموا الخط العربي بالصعوبة وعدم الصلاحية لاستخدام مصطلحات العصر الحديث، واقترحوا الأخذ بالخط اللاتيني وترك الأبجدية العربية.[2]

---

(1) آثار الفكر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية. محمد خليفة حسن، (ص 114 وما بعدها).

(2) المرجع السابق، (ص 119 وما بعدها).

4 - النيل من الفصحى:

ومن ذلك: ما قاله (دوفرين) في تقرير وضعه عام (1882م): (إنَّ أمل التقدم ضعيف في مصر طالما أن العامَّة تتعلم الفصحى العربية).[1]

وسنعرض بالتفصيل في مبحث مستقل لقضية الفصحى والعامية في نظر المستشرقين.

(1) أباطيل وأسمار. محمود محمد شاكر: (ص147)، مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثانية، 1972م.

المبحث الثاني

النظرة المنهجية للعربية

بين اللغويين العرب والمستشرقين

توطئة:

أشرنــا قبل ذلك إلــى تعدد دوافــع الاستشراق؛ وفي نظرنا يمكــن إرجاعها إلــى عاملــين رئيسين هما: الدافــع الديني والدافع السياســي؛ فأمر طبيعي مع الانحســار والانكسار الحضــاري الذي حدث للعالم العربــي والإسلامي ومع نهوض الحضارة الغربيــة وهيمنتها أن ينشط الغرب في دراسة الثقافة العربية والإسلامية بصفة عامة وتراثها بصفة خاصة، وذلك بهدف الكشف عــن مكنونات هذا الــتراث الذي كان سبباً في صنع هــذه الحضارة، وكان الديــن هو المركز الذي تمحور عليه هذا التراث، وقامت عليه هذه الحضارة الإسلاميــة التي هيمنــت على العالم ردحاً من الزمن، من هنــا كان البعد الدينــي حاضراً وبقوة في أذهان المستشرقين في دراستهم للتراث الإسلامي أو الشرقــي بصفة عامة. ناهيك عن البعــد السياسي؛ فبعدما خطت أوروبا خطوات واسعــة في نهضتها الحضارية وفي ظل انحســار وانكسار للحضارة الإسلاميــة والضعف المزري في كل مجالات الحياة -في ذلك الوقت- لأغلب دول العــالم الاسلامــي؛ فضــلاً عن تشرذمهــا وتشتتها، ممــا سهل وقوعها فريسة للاحتلال الغربي، وطبيعي أن يرافق هذا الاحتلال العسكري دراسة شاملة لتراث هذه الدول بهدف الهيمنة الثقافية والسياسية عليها.

ورغم أن هذيــن البعدين كانا غالبين على حركة الاستشراق عموماً؛ فإنهما لــن يخلوا من بعد منهجي ســار عليه بعض المستشرقين في دراستهم للعربية عمومــاً، وفي هذا المعنى يقول د. مصطفــى السباعي: ومن المستشرقين نفر قليــل أقبلوا على الاستشــراق بدافع من حب الاطلاع علــى حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها وهؤلاء كانوا أقل من غيرهم خطأً في فهم الإسلام وتراثه؛ لأنهم لم يكونــوا يتعمدون الدس والتحريف؛ فجاءت أبحاثهم أقرب إلى الحق وإلى المنهج العلمي السليم...[1]

(1) الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، د. مصطفى السباعي، ص(25) دار الوراق، المكتب الإسلامي.

نظرة اللغويين العرب المنهجية

وقد كان هذا البعد المنهجي عند المستشرقين متأثراً إلى حد كبير بالمناهج الغربية السائدة، ومعلوم أن نظرة العرب المنهجية للغة ودراستها تختلف عن نظرة الغرب المنهجية؛ فاللغويون العرب تعاملوا مع اللغة من منظور ديني؛ حيث كان الاهتمام بها منطلقاً للاهتمام والحفاظ على القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين، وكانت النشأة الأولى لعلوم اللغة في معظمها إن لم يكن كلها منطلقة من القرآن الكريم...

فقد ارتبط الدرس اللغوي منذ إرهاصاته الأولى بالنص القرآني؛ فمنذ أن: قدم أعرابي إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، بعد أن أقرأه رجل سورة براءة، فقال: (أَنّ الله بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكينَ وَرَسُولِهِ) بالجر، فقال الأعرابي: إن يكن الله بريئ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر (رضي الله عنه) مقالة الأعرابي، فدعاه؛ فقال: يا أعرابي، أتبرأ من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي قدمت المدينة، ولا عِلم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة (براءة)، فقال: (أَنّ الله بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولِه) فقلت: أو قد برئ الله تعالى من رسوله؟! إن يكن الله بريء من رسوله فأَنَا أبرأ منه. فقال له عمر (رضي الله عنه): ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: (أن الله بريءٌ من المشركين ورسولُهُ)، (بالرفع) فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منه. فأمر عمر (رضي الله عنه) ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة.[1]

مروراً بما يعرف بسؤالات نافع بن الأزرق لعبدالله بن عباس (رضي الله عنه) عن كلمات غريبة في القرآن يريد معانيها،[2] وجهود أبي الأسود

(1) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: أبو البركات الأنباري. تحقيق: إبراهيم السامرائي. (ص19): مكتبة المنار، الزرقاء– الأردن. ط: الثالثة، 1405هـ – 1985م.

(2) نقلها السيوطي كاملة في كتابه الإتقان في علوم القرآن: الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي. (67/2).

الدؤلي (ت 69هـ) ونصر بن عاصم (ت89هـ) في نقط المصحف ومحاولات ضبط كلماته.[1]

فضـلاً عـن علـوم البلاغـة، حينما سـأل رجل أبـا عبيدة معمر بـن المثنى (ت 209هـ) وقَالَ له : قَـالَ اللَّه عز وَجل: (طلعها كَأَنَّـهُ رُؤُوس الشَّيَاطِين) (الصافات): وَإِنَّمَا يَقع الْوَعْد والإيعاد بِمَا عرف مثله وَهَذَا لم يعرف. فَكَان رده عليـه: إِنَّمَا كَلمهمْ اللَّه تَعَالَى بِمَا يعْرفُـونَ وعَلى كَلَام الْعَرَب أما سَمِعت قَول أمرى الْقَيْس:

أَيَـقـتُـلُـنـي وَالمَـشـرَفِيُّ مُضـاجِعـي
وَمَـسـنـونَـةٌ زُرقٌ كَـأَنـيـابِ أَغـوالِ

وهـم لم يرَوا الغـول وَلَكِن لما كَانَ أَمر الغول يهولهم أوعـدوا بِهِ. ثم عزم أبو عبيدة مُنْـذُ ذَلِك الْوَقْت أَن يضَع كتاباً لمثل هَذَا وأشباهه. وقال: فَلَمَّا رجعت إِلَى الْبَصْرَة عملت كتابي الذي سميته كتاب الْمجَاز.[2]

ومنـذ ذلك أصبـح البحث اللغوي في كافـة مجالاته مرتبطـاً ارتباطاً وثيقاً بالنص القرآني؛ بل ما قام إلا من أجل القرآن. والمطالع لإرهاصات الدرس الصوتـي، والنحوي، والمعجمـي، واللهجي، والدلالي، وحتـى البلاغي وغير ذلك من علوم اللغة يلاحظ ارتباطها كلها في بدايتها بالنص القرآني، وكان الهدف منها هو الحفـاظ على النص القرآني من اللحن والتحريف، فضلاً عن الكشف عن جمال معانيه وروعة مبانيه.

وقـد كان هـذا المعنى حاضـراً عند بعضـ المستشرقين... يقـول المستشرق ت. ج. دي بـور: (وأكـبر ما جعـل التعمق في اللغة أمـراً ضرورياً هو اشتغال المسلمين بمدارسة القرآن وقراءته وتفسيره، وكذلك حسب الذين لم يدخلوا

(1) ينظر: السابق (4/184)، كما ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي (2/342). تحقيق: فؤاد علي منصور: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.
(2) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: أبو منصور الثعالبي (ص 78): دار المعارف – القاهرة.

في الإسلام، أنهم يستطيعون إثبات أخطاء لغوية في الكتاب الكريم؛ فأقبل المسلمون على دراسة اللغة لهذا الغرض، وجمعت شواهد من أشعار العرب القديمة، ومن الكلام الحي الجاري على ألسنة الأعراب تأييداً للغة القرآن، وأضيفت لهذه الشواهد ملاحظات عامة تتعلق بصحة العبارة بوجه عام).[1]

لذلك حرص اللغويون على دراسة القرآن الكريم من كل النواحي والمستويات اللغوية؛ الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية والتركيبية، وكان الهدف من وراء ذلك هو التقعيد والتأصيل بهدف الحفاظ على اللغة من اللحن والتحريف والتزييف، فكان منهجهم أقرب إلى المعيارية التي تنتقي اللغة الصحيحة والفصيحة وتترك ما عداها أو على الأقل تنبه على الخلل والزلل الواقع فيها.

فكان هدفهم من جمع اللغة الحفاظ عليها من اللحن والتحريف بسبب اختلاطها باللغات الدخيلة عليها، خاصة بعد كثرة الفتوحات الإسلامية، ولم يكن هدفهم جمع لهجاتها أو حصرها، لذا نراهم حصروا أنفسهم في الصحيح والفصيح منها، خاصة ما أقره القرآن الكريم وحافظت عليه ألسنة العرب الخلص.

يقول مصطفى صادق الرافعي: (على أنهم لم يدونوا من كل ذلك إلا كفاية الحاجة القليلة في تصاريف الكلام... أما تدوين اللهجات على أنها أصل من أصول الدلالة التاريخية في اللغة؛ فهذا لم ينتبه له أحد فيما نعلم لأن أكبر غرضهم من جمع اللغة وتدوينها يرجع إلى علوم القرآن والحديث ولغتهما قرشية، وهذه يقل الاختلاف فيها لأنها حضرية مهذبة).[2]

---

(1) تاريخ الفلسفة في الإسلام: ت.ج. دي بور. ترجمة وتعليق: الدكتور محمد عبدالهادي أبو ريدة (ص 56،55): دار النهضة العربية الطبعة الثالثة: 1954م.

(2) تاريخ آداب العرب. مصطفى صادق الرافعي (109/1). مكتبة الإيمان : 1997م.

لـذا نراهـم اتجهوا في جمعهم للغة إلـى القبائل التي ظنـوا أنها بعيدة عن الاختـلاط، والتي بقيت اللغـة فيها نقية صافية لم يعكر صفوها غبش دخيل أو مولد أو لحن يخرجها عن أصالتها وفصاحتها.

فرفضوا الأخذ عن تلك القبائل المتطرفة التي كانت مساكنها حدود الجزيرة العربيـة؛ فلم يأخذوا عن قضاعة لمجاورتهـا بلاد الرومان واحتمال تأثرهم بلغـة الروم في حـدود سوريا وفلسطين، كما رفضـوا الأخذ عن تغلب والنمر لقربهـم مـن أرض الجزيـرة وتأثرهـم بالفارسيـة واليونانية، كمـا أنكروا الفصاحـة على بكر لاتصالهـم بالفرس والنبط، وقالـوا إن اختلاط قبائل اليمـن بالحبشة قد أضعف من فصاحتهم، وإن اتصال لخم وجذام بمصر قد جعل لغتهم موضع الشك فلا يحتج بها في الروايات اللغوية.[1]

وقـد أسـس اللغويـون فصاحـة القبيلة علـى دعامتين: الأولـى مقدار قرب مساكنهـا مـن مكة ومـا حولهـا، والثانية: مقـدار توغلها في البـداوة؛ ولذا رأيناهـم يعتـزون بلغـة القبائل الحجازيـة بوجه عام، وقبائـل نجد ووسط الجزيـرة، ويرفضـون الأخـذ عن القبائل التـي كانت مساكنهـا في أطراف الجزيرة وعلى حدودها.[2]

ولعـل هـذا هو سـر اهتمامهـم الكبير بلهجـات (الحجاز) ممثلـة للجانب الحضـري في الجزيرة العربيـة، و(تميم) ممثلة للجانـب البدوي. من هنا فليـس غريبـاً أن نراهم لم يهتموا بلهجات -قد تكون كثيرة في ذلك الوقت- لأنـه ربما رأوا أن فيها بعداً عـن الصحة أو الفصاحة، أو أنهم لم يريدوا أن تتفـرق اللغة وتتشعب، أو غير ذلك؛ لذا فقد كثرت عندهم مصطلحات تدل علـى استهجان بعض اللهجات مثل (لغة رديئة)، (لغـة قليلة)، (لغة أباها

(1) في اللهجات العربية. د. إبراهيم أنيس: (ص 47). مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة التاسعة 1995م.
(2) في اللهجات العربية (ص51).

الحذاق)، (لغة شاذة) إلى غير ذلك من العبارات التي تدل على أنه لم يكن هدفهم جمع اللهجات دون اعتبار لفصاحتها أو صحتها، بل كان الاعتبار الذي يقصدونه من جمع اللهجات هو الصحة والفصاحة.

ونراهم يعيبون بعض لهجات وردت عن قبائل معينة لبعدها عن الفصاحة، يقول السيوطي في المزهر: (ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وتلتلة بهراء وكسكسة ربيعة وكشكشة هوازن وتضجع قيس وعجرفية ضبة).[1]

ويعلل د. إبراهيم أنيس هذا بـ: (أن الدولة العربية (الإسلامية) اتسعت حتى شملت دولاً كثيرة فكان لابد لضمان وحدتها والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تعطى اللهجات العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويباعد بينها فأهمل أمرها ولم يرو عنها إلا القليل في ثنايا كتب اللغة والأدب والتاريخ).[2]

انتقاد النظرة المنهجية العربية والرد عليها

ونظرة اللغويين العرب ومنهجهم وتعاملهم مع اللغة بهذه الطريقة قد تبدو متشددة ومقصية لقدر ما من اللغة المتداولة على ألسنة العرب في ذلك الوقت، وهذا ما عابه كثير من المستشرقين وتبعهم لغويون عرب محدثون في ذلك؛ حيث عابوا على لغويينا هذا المنهج واتهموهم بأنهم ضيعوا أكثر من نصف اللغة بسبب إهمالهم للهجات كثيرة -على حد زعمهم- يقول د. أحمد علم الدين الجندي: (والحقيقة القاسية أن اهتمام اللغويين بالحجاز وتميم ضيع علينا أكثر من نصف اللغة وما جاءنا من اللهجات العربية غير لغتي (الحجاز) و(تميم) أضاعوه وشردوه، تارة مهمل العزو وأخرى تحت

(1) المزهر للسيوطي (1 / 211).

(2) في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس (ص 47).

الشذوذ، وأحياناً باسم الندور أو الندرة وطوراً بين المسموع الذي يسمع ولا يقاس عليه! حتى جاءتنا بقية اللهجات العربية وليداً مشوه الخلقة مبتور اليدين والقدمين محروماً من النسب لأمه وأبيه!).[1]

وينتقد فيشر هذه الطريقة بقوله: إن النقص المهم في المعجمات التي صنّفها العرب يرجع إلى أن مصنفيها ما كانوا يجمعون كل مفردات العربية، بل كانوا يجمعون الفصيح منها فقط.[2]

ويرى فرنديم أن المعجم العربي غير مثالي؛ لأنه حجب شواهد المصادر التاريخية، والفقهية، والعلمية وغيرها عن الدخول إليه.[3]

ويقول المستشرق برجشتراسر وهو يعلل عدم اعتناء علماء اللغة الأوائل بالتطور اللغوي ويرجع ذلك إلى سببين: أولهما: مداومتهم على السؤال عن الجائز في اللغة وضده، وعن المنع عن كثير من العبارات، وهذا وإن كان واجباً فهو عمل المعلم لا العالم... فالعالم يفحص ما يكون في الحقيقة، لا عما ينبغي أن يكون... والسبب الثاني: اعتقاد علماء الشرق أن أكمل ما كانت عليه اللغة العربية وأتقنه وأحسنه ما يوجد في الشعر القديم، وهو حكم غير علمي.[4]

وهو اتهام فيه قدر كبير من التجني عليهم؛ ولسنا مع الذين يعيبون على لغويينا هذا الأمر؛ لأن اللغويين في ذلك كانوا على درجة عالية من الحكمة والفكر الواعي الذي يحافظ على أصالة اللغة وفصاحتها ووحدتها ونقائها،

(1) اللهجات العربية في التراث. د. أحمد علم الدين الجندي: (1 / 59) الدار العربية للكتاب :1983 م.
(2) المعجم اللغوي التاريخي: المعجم اللغوي التاريخي، أ. فيشر، تصدير: د. إبراهيم مدكور المقدمة (ص 7)، ط 1، 1387هـ — 1967م. القاهرة، مجمع اللغة العربية، المطابع الأميرية.
(3) دراسة في المعاجم العربية، كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني، فرند ديم، ترجمة: د. حسن محمد الشماع (ص83)، الرياض 1400هـ – 1980م.
(4) التطور النحوي للغة العربية. برجشتراسر. تصحيح وتعليق د. رمضان عبدالتواب (ص 204، 205) مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط الثانية.

وهــذا ســر خلودها ووقوفهــا شامخــة لا تتغير ولا تتأثــر بوافــد. فاللغويون القدامــى لم يدخــروا جهداً للحفاظ علــى اللغة وحمايتهــا؛ والتراث اللغوي الضخــم الــذي خلفــوه خير شاهد علــى هذا الجهــد، لكــن اهتمامهم كان منصبــاً على الجانب الكيفي في اللغــة دون الكمي، وقد أثبت التاريخ نجاعة هــذا المنهج؛ حيث بقيت العربية قوية رغم تعاقب الأزمان، لم يعترها تبديل أو تحريف يخرجها عن قوانينها وقواعدها.

كما أن اللغويين العرب لم ينشؤوا هذه الأحكام والقواعد سواء في جمع اللغة، أو تقعيدها -نحواً وصرفاً وصوتاً- وإنما بنوا على ما كان موجوداً ومستعملاً من اللغة على ألسنة العرب، وفي المصادر التي اعتمدوها، وهو ما كانت عليه اللغة النموذجية عند العرب.

نظرة الغرب المنهجية للغة

وإن كانت هذه نظرة العرب للغتهم؛ فإن نظرة الغربيين عموماً، والمستشرقين بالطبــع نظرة مختلفــة؛ حيث ســادت في أوروبا مع بدايــة نهضتها الحديثة عــدة مناهج، قامت كلها علــى دراسة اللغة عموماً، دون التفريق بين مستوى ومستــوى آخر، ودون النظر الى فكرة الصــواب والخطأ، بل كان التعويل في غالبــه على الجانب التداولي؛ أي دراسة اللغة في صورتها المحكية والمنطوقة والمتداولــة، إضافة إلى أنهم بحكم انتمائهــم الديني لم ينظروا إلى اللغة أو حتــى القرآن الكريم بهذه النظرة المقدســة التي ينظر بها المسلمون للغتهم؛ وبالطبــع اللغويــون منهــم؛ لأنهــم لا يؤمنون بالقــرآن الكريم كمــا يؤمن به المسلمون؛ فمن هنا نظروا إليه كنص عادي، ونظروا للغة أيضاً نظرة عادية دون تمييز بين مستــوى ومستوى آخر، إلا ما تفرضه المنهجية التي يتعاملون بها مع النصوص.

مـن هنا جـاءت أحكامهم في كثير منها بنتائج غـير مرضية، وإن حملت في طياتهـا بعداً منهجياً، لأنها انطلقت مـن مبدأ مغاير للتصور والمنظور الذي ينظر به المسلمون إلى لغتهم.

وفي نظرنـا أن هذا هـو أساس المشكلـة، وأساس الهجوم علـى المستشرقين والطعـن في نواياهم وأغراضهم، وإن كنا لا ندافع عن هذه النوايا؛ فإنها قد تكـون حاضرة بالفعل، لكننـا نحاول أن نفسر مـا وراء النتائج التي خرجوا بها، رغم وجود المنهجية وحضورها في تناول الدرس اللغوي.

وللدكتـور موراني –وهـو مستشرق وأستـاذ بالجامعة الألمانيـة– رأي ملفت للنظـر في البعـد والخلفية المنهجية للمستشرقين، وتشكيـك المسلمين لنوايا وتوجهـات المستشرقـين؛ وكان قد سئل سؤالاً من شبكـة التفسير على شبكة التواصل على الإنترنت:

س: لألمانيـا سبق ظاهـر في الدراسـات القرآنيـة، فقد نشـرت الكثير من الدراسـات القرآنية، ودعم تحقيـق نفائس كتب الدراسـات القرآنية، ومن أهم الكتب التي حققت في ألمانيا: التيسير في القراءات السبع للداني، والمقنع في رسم المصاحف للـداني، ومختصر الشواذ لابن خالويه، والمحتسب لابن جنـي، وغاية النهاية لابن الجزري، ومعاني القـرآن للفراء، وإيضاح الوقف والابتـداء لابن الأنباري، وغيرها من البحـوث القيمة. ما هو الواقع الحالي للدراسـات الاستشراقيـة في ألمانيـا؟ وهـل لا يـزال الاهتمـام بالدراسات القرآنية يحظى بالتقديم؟

فأجاب بقوله:

(هذه الكتب والدراسات التي ذكرت تثبت اهتمام المستشرقين بنص القرآن من النـاحية اللغوية، وهو أمرٌ دفع بعض البـاحثين في النصف الأول من القرن

الماضي إلى إخراج الكتب القديمة حول القراءات. ولم يكن هذا العمل إلا بِمثابة اقتراب علميّ للنص، وليس بنية إبرازِ أخطاء القرآن، والتشكيكِ في صحتهِ كما يذكر كثير من الباحثين المسلمين في بحوثهم وكتبهم المنشورة، وهذا الموقف من الدراسات الاستشراقية لا يزال موقفاً سائداً عند الكثير من الباحثين المسلمين؛ حيث وقفوا موقفاً مضاداً لكل أو أغلب ما صدر على أيدي المستشرقين تقريباً، وهذا الرأي يحتاج إلى إعادة نظر وإنصاف للباحثين المستشرقين المخلصين المنصفين على وجه الخصوص، أَمَّا مَنْ تعمَّد الإساءة والتحريف من المستشرقين فقد عارضه المستشرقون أنفسهم قبل المسلمين، ومثال ذلك ما كتبه مرجليوث في الشعر الجاهلي، قد عارضه المستشرقون أنفسهم وردوا عليه قبل أن يصل الخبر إلى دوائر البحث العلمي في العالم الإسلامي بمدة.

ولكن الآن هذه النشاطات والأبحاث حول القرآن قد توقفت، للأسف منذ مدة، فليس هناك دراسات يمكن مقارنتها بما كان في الماضي. وما نجده اليوم لا يعدو دراسات قصيرة على شكل مقالات في المجالات المتخصصة في الاستشراق...).[1]

وفي هذا السياق نفهم النظرة المتفاوتة والأحكام المتباينة التي يخرج بها بعض المستشرقين دون بعض؛ فهذا هو المستشرق الفرنسي (ت.ج. دي بور) يمتدح اللغة العربية، ويفضلها على اللاتينية والفارسية؛ حيث يقول: (وكانت هذه اللغة بما حوت من كثرة في المفردات ووفرة في صور التعبير وبما في طبيعتها من قبول للاشتقاق خليقة أن تتبوأ مكانها بين لغات العالم،

(1) ينظر: لقاء شبكة التفسير والدراسات القرآنية مع المستشرق الألماني الدكتور ميكلوش موراني. الخميس 1/ 1/ 1426هـ. http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=26757

ولـو قارناها باللغة اللاتينيـة في ثقلها وقلة مرونتهـا، أو باللغة الفارسية في فـرط إسهابها، لوجدناها تمتاز عليهمـا، بما فيها من صور لفظية قصيرة، تـدل على المعاني المجردة، وهـذه خاصة عظيمة النفـع في ممارسة العلوم، فنحن نستطيع أن نعبر بهذه اللغة العربية عن أدق الفروق بين المعاني).[1]

ولكـن مستشرقـاً آخر هـو (وليم بولك) يقـول في تقديمه لكتـاب (العربية الفصحـى الحديثة) لستتكيفتشـ متسائلاً ساخراً من تعلـق العرب باللغة الفصحى: (أليست اللغة قبل كل شيء مجرد وسيلة ومن ثم تقوم – بصورة أساسيـة– في ضوء الجوانب العملية؟ وإذا مـا وجدت وسيلة أفضل متوفرة ألا ينبغي اتخاذها؟).[2]

وهـذا هو المستشـرق الألماني: (كارل فولـرز K. Vollers 1850 – 1909 م) في كتابـه لغـة الكتابـة واللغـة الشعبية في بـلاد العرب قديمـاً (المطبوع في إستراسبـورغ، 1906م) يدعي أن القرآن نزل أول الأمر بلهجة مكة المجردة من ظاهرة الإعراب؛ ثم نقَّحَه العلماء على ما ارتضوه من قواعد ومقاييس، حتـى أضحى يقرأ بهذا البيان العذب الصـافي، وغدا في الفصاحة مضرب الأمثال؟! وقد أذاع فولرز أن القرآن كان في بادئ الأمر بلسان عامة قريش، وأن القـرآن قد عُدِّل وهُذِّب حسب أصول اللغـة الفصحى في عصر ازدهار اللغة العربية).

ولكـن المستشرق الألماني نولدكه ردّ علـى هذا القول وفنده ونقده نقداً علميّاً موضوعيّاً، أقام فيه الحجة على أن أغلب ما توهمه فولرز تجرداً من الإعراب إنما كان صوراً من تساهل الناس في القراءة بعد اختلاطهم بالأعاجم وشيوع

(1) تاريـخ الفلسفـة في الإسـلام: ت.ج. دي بور. ترجمة وتعليـق: الدكتور محمد عبدالهـادي أبو ريدة (ص 55، 56).

(2) ينظـر: المستشرقون والمناهـج اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايرة. (ص112) دار حنين. عمان. الأردن. ط الثانية 1992م.

اللحــن والتحريف، فليســ للنص القرآني صلة بشــيء من هذه الملاحن من قريــب أو من بعيد، وإنه من غير المعقــول أن تُستخدم في القرآن لغة تخالف -كل المخالفــة- تلك اللغةَ التــي كانت شائعة في مكــة، وأن يكون النبي عليه الصــلاة والسلام وكبار هــذا الدين قد اعتنوا باللغــة والإعراب (في قراءة القــرآن) هذه العناية، والناس في ذلــك الزمان لا يستخدمون هذا الإعراب في كلامهم!(1)

وفي مجــال الأصــوات يشهــد للغويين العــرب عالمــان غربيان كبــيران هما برجشتراســر الألماني، وفيرث الإنجليزي. يقــول الأول: (لم يسبق الأوربيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق وهما أهل الهند... والعرب).

ويقول الثاني: (إن علم الأصوات قد نما وشب في خدمة لغتين مقدستين هما السنسكريتية والعربية).(2)

ويقول (دي بور) في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام): علم النحو أثر رائع مــن آثار العقــل العربي، بما له مــن دقة في الملاحظة، ومــن نشاط في جمع مــا تفــرق، وهو أثر عظيم يرغــم الناظر فيه على تقديــره، ويحق للعرب أنْ يفخروا به.(3)

وهذا يوهان فك يقول: (ولقد تكفلت القواعد التي وضعها النحاة العرب -في جهــد لا يعرف الكلــل، وتضحية جديرة بالإعجــاب- بعرض اللغة الفصحى وتصويرهــا في جميــع مظاهرها مــن ناحية الأصــوات، والصيــغ، وتركيب

(1) ينظــر: دراســات في فقــه اللغة: د. صبحــي إبراهيم الصالح (صــ 122): دار العلــم للملايين: الطبعة الأولى 1379هـ - 1960م. ومحاضرات في فقه اللغة. د. عصام نورالدين، (ص 63) بيروت: دار الكتب العلمية: 2003م.

(2) البحث اللغوي عند العرب: د. أحمد مختار عمر (114): عالم الكتب. الطبعة: الثامنة 2003م.

(3) تاريــخ الفلسفــة في الإســلام: ت.ج. دي بور. ترجمة وتعليــق: الدكتور محمد عبدالهــادي أبو ريدة (ص 55، 56).

الجمـل، ومعاني المفـردات، على صورة محيطـة شاملة، بحيـث بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال، لا يسمح بزيادة لمستزيد).[1]

ويقـول فيشر في مقدمـة معجمه: (إذا استثنينا الصـين لا يوجد شعب آخر يحـق له الفخار بوفـرة كتب علوم لغته، وبشعوره المبكـر بحاجته إلى تنسيق مفرداتها بحسب أصول وقواعد غير العرب).[2]

ويتحـدث المستشـرق الفرنسي الدكتـور موريس بوكاي عـن طريقة تدوينه كتابـه: القرآن والإنجيل والتوراة والعلم. فيقـول: لقد قمت بدراسة تحليلية دقيقـة للقـرآن، وكان هـدفي الأول دراسة نصِّه آيـةً آيـةً مستعيناً بمختلف التعليقات اللازمة للدراسة النقدية بشكل خاص، وانتهيت إلى دقة الإشارات الخاصـة بالظواهـر الطبيعية، ومطابقتها للمفاهيم التـي نملكها اليوم عن هـذه الظواهر نفسها، والتي لم يكن لمحمد (صلى اللّه عليه وسلم)، ولا لأي إنسـان في عصر محمد (صلى اللّه عليـه وسلم) أن يكون عنها أدنى فكرة. كيـف يمكـن لإنسان كان في بداية أمـره أمّيّاً أن يصـرّح بحقائق ذات طابع علمـي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكوّنها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟! وعلى حين نجد في التوراة أخطاء فادحة، فإنا لا نجد في القرآن أيّ خطأ. وقد دفعني إلى ذلك إلى أن أتسـاءل: لو كان مؤلف القرآن إنساناً، فكيـف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع العلوم الحديثة؟ فنصُّ القرآن الذي نملكه اليوم هو النص الأول نفسه.[3]

---

(1) العربيـة، دراسات في اللغة واللهجـات والأساليب. يوهان فك (ص14) ترجمـة د. رمضان عبدالتواب. مكتبة الخانجي. القاهرة 1400هـ — 1980م.

(2) المعجم اللغوي التاريخي، فيشر (ص4). مجمع اللغة العربية. الطبعة الأولى: 1387هـ — 1967م.

(3) ينظـر: القـرآن والإنجيل والتوراة والعلم. موريس بوكاي. (ص 148، 149) ترجمة الشيخ: حسن خالد. المكتب الإسلامي. الطبعة الثالثة 1411هـ – 1990م.

المبحث الثالث

أهم المناهج التي سلكها المستشرقون في دراستهم للعربية[1]

(1) يراجع في هذه المناهج: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د. محمود السعران، دار الفكر العربي: طبعة 2، القاهرة 1997، وعلم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن د. محمود فهمي حجازي، والتفكير اللغوي بين القديم والجديد، د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب-القاهرة، والمدخل إلى علم اللغة د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة: الثالثة 1417هـ - 1997م، وعلم اللغة العام. د. عبدالله ربيع، مؤسسة الرسالة، 1403 هـ- 1983م، ومدخل إلى علم اللغة الحديث د. عبدالفتاح البركاوي، مكتبة الانجلو المصرية، ط: رابعة 1426هـ2005-م وأصول تراثية في اللسانيات د. كريم زكي حسام الدين. القاهرة : مكتبة النهضة المصرية، 2001.

مع حلول القــرن التاسع عشر، شهدت الدراسات اللغوية تطوراً كبيراً. وكان من أهــم ما أتى به هذا القرن، هو الاتجاه إلــى الدراسة اللغوية التاريخية، بعد أن اكتشفت اللغــة السنسكريتية وعرفت علاقتها باللاتينية والإغريقية وغيرهمــا. ومنذ ذلك الحــين عرفت الدراســة اللغوية، ثلاثــة مناهج هي: المنهــج الوصفي، والمنهــج التاريخي، والمنهــج المقارن.[1] وأصبــح علم اللغة منذ نهاية القــرن التاسع عشر علماً مستقلاً له مقومات العلوم وله مناهجه الخاصة به.[2]

وقــد عالــج المستشرقون اللغة العربيــة من خلال هذه المناهــج الثلاثة التي كانت ذائعة ومنتشرة في الدراسات اللغوية الغربية في ذلك الوقت.

المنهج التاريخي:

يدرس المنهج التاريخي اللغة دراسة طولية، بمعنى أنه يتتبع الظاهرة اللغوية في عصــور مختلفــة، وأماكن متعددة لــيرى ما أصابها مــن التطور، محاولاً الوقوف على سر هذا التطور، وقوانينه المختلفة.[3]

ويعــد المنهج التاريخــي أسبق المناهج ظهوراً في الدراســات اللغوية الغربية، وقد ساد هذا المنهج في أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وطبقه المستشرقون على اللغة العربية، وكان من آثاره الاهتمام باللغة التراثية على حســاب اللغات المعاصرة، وكان هــذا عرفاً سائداً في الدراسات الغربية قبل أن يطبقه المستشرقون على العربية، وقد أُخذت بهذا المنهج اللغات الأوروبية القديمــة كاليونانية واللاتينية، وأهملت اللغات الحديثة؛ إذ كان ينظر إليها

---

(1) المدخــل إلــى علم اللغة ومناهــج البحث اللغــوي: د. رمضان عبدالتــواب (صـ181): مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط: الثالثة 1417هـ - 1997م.

(2) علم اللغة العام د. عبدالله ربيع (ص 3-7).

(3) المدخل إلى علم اللغة. د. رمضان عبدالتواب (ص 196).

على أنها شـيء متغير خداع، وأن الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة.[1]

ومن أشهر الكتب التي ألفت على المنهج التاريخي كتاب المستشرق يوهان فك: العربيـة.. دراسات في اللغة واللهجات والأساليـب. وقد تعقب (فك) تاريخ العربيـة ابتداء مـن العصر الأمـوي والعباسي، وانتهاء بعصـور السلاجقة والسيـل المغـولي الذي أكمل حلقة الختام في مراحـل الانحلال اللغوي، التي بدأت بظهور السلاجقة. لكي يشير في نظرة خاطفة إلى الطريق الذي سلكه تطور العربية الأدبية في القرون التالية حتى العصر الحاضر.[2]

ويرى (فـك) أن العربية بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) هي عربية مولدة، خاصة بعـد انتقالها عن طريق الغزوات الكبرى في العهد الإسلامي الأول إلى خارج حدودها القديمة، في مواطن لغوية أجنبية.[3]

وقـد قسـم المستشـرق الألماني (فيشـر) في كتـاب (الأساس في فقـه اللغة العربيـة) الـذي أشـرف على تحريـره. العصـور التاريخية التـي مرت بها العربية، ودرسها على النحو التالي:

المرحلـة الأولـى: مرحلة العصـر الجاهلي، وصـدر الإسـلام، أو ما يسمى المرحلـة قبل الكلاسيكية، وتتمثل نصوصها في الشعر العربي القديم، وشعر صدر الإسـلام، كما تتمثل في القـرآن الكريم، والحديـث النبوي الشريف، وغير ذلك مما يثبت قدمه من أمثال وحكم.

المرحلـة الثانية: المرحلـة الكلاسيكية للغـة الفصحى، وتبـدأ من منتصف القـرن الثـاني الهجري (الثامـن الميـلادي)، وتستمر حتى القـرن الرابع،

---

(1) المستشرقون والمناهج اللغوية. د. إسماعيل عمايرة (ص 23).

(2) العربية يوهان فك (ص 5).

(3) العربية يوهان فك (ص 5).

وهـي المرحلة التي كان الكُتَّاب والشعراء يلتزمون فيها بالقواعد التي أصلها النحاة، واعتبروا الخروج عنها شذوذاً أو لحناً.

المرحلة الثالثة وتسمى ما بعد الكلاسيكية، وتمتد لتشمل القرون الثمانية من الرابـع إلى الثاني عشر الهجري (أي من القرن الحادي عشر الميلادي حتى القرن التاسع عشر). المرحلة الرابعة: وتبدأ ببداية القرن التاسع عشر.[1]

ونـرى أن استخدام مصطلحات، مثـل: العربية الكلاسيكيـة، والوسيطة أو المولـدة والمعاصرة. هو استخدام غير موضوعـي، لأن مصطلح الكلاسيكية في المفهـوم الغربـي يطلق على اللغات التاريخية المندثـرة؛ فلا ينبغي تشبيه العربية الفصحى بهذه اللغـات؛ ولأن مفهوم المستشرق للعربية الكلاسيكية يفترق عن مفهوم العربي للعربية الفصحى؛ فالمستشرق يرى أن الكلاسيكية مرحلـة لا تستوعب كل المراحـل، ويرى العربي أن هذا المفهوم لا ينطبق على ثوابـت اللغـة...،[2] فضلاً عـن أن للعربية وضعاً خاصـاً يميّزها في تطورها عـن اللغات الأخـرى بحكم ارتباطها بالقـرآن الكـريم؛[3] فالعربية لا تشبه اللغات الأوروبية التي كانت لهجات لاتينية، ثمّ تطوّرت إلى لهجات منفصلة، لأن العاميـات العربيـة الحديثة لا تصلـح أن تكون تطـوراً للفصحى، وهذا مـا دعا (فيشر) إلى التراجع عن تقسيم العربيـة إلى فصحى: كلاسيكية، ومولـدة، ومعاصـرة، حيث وجـد أن محاولة ترتيـب المراحـل الزمنية للغة العربيـة يصطـدم بعقبتين همـا: القواعـد النحويـة العربية التـي لا تقبل

---

(1) ينظـر: الأساس في فقه اللغة العربية. إشراف: المستشرق الألمـاني فيشر، (ص 16). ترجمة وتعليق: د. سعيد بحيري. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. القاهرة. الطبعة الأولى 1422هـ — 2002م. كما ينظر: مدخـل إلى علم اللغة الحديث د. عبدالفتاح البركاوي، (صـ 89) مكتبة الانجلو المصرية، ط: الرابعة 1426هـ– 2005م.

(2) بحـوث في الاستشـراق واللغة: د. إسماعيل عمايرة (ص 329). مؤسسـة الرسالة. ط. الأولى 1417هـ. 1996م.

(3) السابق: (ص 328).

التبديل والثانيـة: استمرار ثبات اللغة الذي هو ثمرة لهذه المعايير والقواعد النحويـة.[1] ثم يقـول: (والحقيقة أن نشـوء الأنظمة المدرسيـة النحوية... يعطينـا الحـق في أن نعتبر اللغـة العربية –ابتـداء من شواهدهـا النصية القديمـة كالشعر العربـي القديم وحتى ظهور مرحلـة متأخرة وهي العربية المكتوبـة المعاصرة– لغة واحدة وأن نطلق عليها اسم (العربية الكلاسيكية) KLassisches Arabisch؛ لأن الالتـزام بالمعيـار المدرسـي التعليمـي... هـو الذي يميـز المثقفين من غير المثقفـين... ولذا كان ينبغـي أن ينظر إلى مصطلـح (العربيـة الكلاسيكية) ليس باعتباره اصطلاحـاً دالاً على تاريخ اللغة، بل بوصفه إشارة إلى واقع اجتماعي لغوي...).[2]

ومن مآخذ تطبيق هذا المنهج على العربية: أن المفهوم الاستشراقي للعربية يرى تاريخ اللغة أية لغة على أنه سلسلة من المراحل المتباعدة تدريجياً، حتى يصبـح الفرق واسعاً بين ماضي اللغة وحاضرها، ويشمل الاتساع في الفروق بين المراحل اللغوية جميـع الجوانب اللغوية من نحو وصرف وصوت ومعنى، أما المفهوم السائد للعربية فهو يقوم على أن للعربية وضعاً خاصاً يميّزها في تطورها عن اللغات الأخرى بحكم ارتباطها بالقرآن الكريم.[3]

من آثار المنهج التاريخي في دراسة المستشرقين للعربية

وكان من أهم آثار المنهج التاريخي في دراسة المستشرقين للعربية هو المعجم التاريخـي: والمعجـم التاريخي فكرة انبثقـت تحت تأثير الاتجـاه التاريخي في الدراســة اللغوية في القــرن التاسع عشر، وهي فكـرة ابتدأها المستشرق

(1) المراحل الزمنية للغة العربية الفصحى. فيشر. ترجمة د. إسماعيل عمايرة. ضمن: بحوث في الاستشراق واللغة: (ص432).
(2) السابق: (ص 432).
(3) بحوث في الاستشراق واللغة: (ص 328).

الألماني فيشر؛ لكنها لم تكتمل ولم تر النور لأسباب كثيرة.[1]

أما المنهج الذي رسمه فيشر لمعجمه التاريخي فيتلخص فيما يأتي:

1 – الرجوع إلى الواقع اللغوي المسجل، والمحدد بعصور معينة. مع البدء بالكتابة المنقوشة المعروفة بنقوش النمارة من القرن الرابع الميلادي والانتهاء بنهاية القرن الثالث الهجري، وهو القرن الذي اعتبره المجمع اللغوي منتهى ما وصلت إليه اللغة العربية الفصحى من كمال.

2 – اشتمال المعجم على كل كلمة –بلا استثناء– وجدت في اللغة.

3 – ضرورة معالجة الكلمات من النواحي السبع التالية: التاريخية، والاشتقاقية، والتصريفية، والتعبيرية، والنحوية، والبينية، والأسلوبية.

4 – مراعاة ترتيب المعاني المتعددة للكلمة بتقديم المعنى العام على الخاص والحسي على العقلي والحقيقي على المجازي ونحو ذلك...

5 – تحديد المحيط اللغوي الذي تستعمل فيه الكلمة أو التعبير أو التركيب، كلغة القرآن ولغة الحديث وأسلوب الشعر والنثر، والأسلوب التاريخي وأسلوب الفنون وغيرها.

6 – محاولة إتباع الشرح باللغة العربية بالترجمة المختصرة الإنجليزية أو الفرنسية زيادة في الإيضاح، وحتى تعين المستشرقين الذين لم يتمكنوا من اللغة العربية غاية التمكن.

ولكن إذا رجعنا إلى النموذج الذي طبعه مجمع اللغة العربية نلاحظ أن

(1) للاطلاع على هذه الفكرة، ينظر: البحث اللغوي. د. محمود فهمي حجازي: (ص59) القاهرة. 1993م، المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، د. محمد حسن عبدالعزيز (ص45). دار السلام. القاهرة. 1429هـ. 2008م، والمعجم اللغوي التاريخي، منهجه ومصادره، د. عبدالغني أبو العزم (ص 7)، الرباط. 2006م، والاتجاهات الحديثة في صناعة المعجمات، د. محمود فهمي حجازي: (ص 97) ضمن بحوث مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء الأربعون. ذو القعدة 1397 هـ.

المؤلف لم يلتزم أن يطبق في هذا النموذج المنهج التاريخي الذي ادعاه ولا التسلسل الزمني لتطور كلمة سواء من ناحية النطق أو الدلالة، وإنما كل ما يزيده على المعاجم الأخرى (القديمة منها لا الحديثة) ترتيب مادة الكلمة ترتيباً داخليّاً، وذكر المصادر التي تعرضت لعلاج هذه الكلمة.[1]

المنهج المقارن:

كان اكتشاف اللغة السنسكريتية، في القرن الثامن عشر، سبباً في نشوء علم اللغة المقارن، وطمع علماء الساميات في تطبيق المنهج المقارن للغات الهندو أوروبية، على مجموعة اللغات السامية، وحاولوا بالمقارنة الاهتداء إلى الأصول الأولى، وأطلقوا عليها اسم (اللغة السامية الأم). غير أنهم كانوا يدركون تماماً، أن هذه اللغة الأم، لا تخرج عن كونها افتراضاً قابلاً للتعديل في أي وقت، طبقاً لما تؤدي إليه بحوث المستقبل.

وقد أثمرت الدراسات السامية المقارنة في القرن الماضي، والقرن الحالي، ثمرات عظيمة، والفضل في كل هذا للمستشرقين من علماء الغرب.[2]

ولم تكن اللغات السامية مجهولة تماماً، بالنسبة للعرب، فقد فطن إليها بعض من اللغويين العرب، وإن لم تأخذ حيزاً كبيراً من اهتمامهم ودراساتهم، وإنما أخذت شكل إشارات وتلميحات عابرة؛ فالخليل بن أحمد (ت 175هـ) يشير إلى العلاقة بين الكنعانية والعربية، فيقول: وكنعان بن سام بن نوح إليه ينسب الكنعانيون، وكانوا يتكلمون بلغة تقارب العربية.[3]

(1) ينظر: البحث اللغوي عند العرب: د. أحمد مختار عمر: (ص317 – 318)، عالم الكتب، الطبعة: الثامنة 2003م.

(2) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبدالتواب (ص201).

(3) العين للخليل بن أحمد (1/ 205) تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال.

كمـا عرف أبو عبيـد القاسم بن سلام (ت 224هـ) اللغـة السريانية، وأداة التعريـف فيها وهـي الفتحـة الطويلة في أواخـر كلماتها. يقـول: للعرب في كلامها علامات لا يشركهم فيها أحد من الأمم نعلمه. منها: إدخالهم الألف والـلام في أول الاسم. وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه في الرفع والنصب والخفض، كما دخلـوا في الطور. وحذفوا الألف التي في آخر الإعراب في كل وجه، وهو بالسريانية (طورا) على حال واحد في الرفع والنصب والخفض، وكذلك اليم وهو بالسريانية (يما).[1]

وكذلـك أدرك ابن حـزم الأندلسي (ت 456هـ) علاقـة القربى بين العربية والعبرية والسريانية، فقال: (من تدبر العربية والعبرانية والسريانية، أيقن أن اختلافهـا، إنما هو من تبديل ألفاظ الناس على طول الأزمان، واختلاف البلدان، ومجاورة الأمم وأنها لغة واحدة في الأصل).[2]

كمـا عرف أبو حيان الأندلسي (ت 745هـــ) اللغة الحبشية، وأدرك العلاقة بينها وبين العربية، وألف فيها تأليفاً مستقلاً، فقال: (وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش، في كتابنـا المترجم عن هذه اللغة، المسمى: بجلاء الغبش عن لسان الحبش. وكثيراً ما تتوافق اللغتان: لغة العرب ولغة الحبش، في ألفاظ، وفي قواعـد من التركيب نحويـة، كحروف المضارعة، وتـاء التأنيث، وهمزة التعدية).[3]

ولا نستطيع القول إن اللغويين العرب كانوا على معرفة كاملة بالمنهج المقارن، بالشـكل الذي عـرف به حديثـاً على يد لغويـي الغرب، وإنمـا كانت مجرد

(1) ينظر: كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازي. (ص 89).

(2) الإحـكام في أصول الأحكام لابن حـزم (1/ 32) تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر. قدم له: د. إحسان عباس.: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(3) البحـر المحيـط: أبو حيـان الأندلسـي (4/560) تحقيق: صدقي محمـد جميل. الناشـر: دار الفكر– بيروت. ط:1420هـ.

إشــارات عابرة لا ترقــى إلى شكل الدراســة الكاملــة أو المستفيضة؛ وذلك لأنهم -كما أسلفنا- لم يكن اهتمامهم منصباً على مقارنة العربية بغيرها، وإنما كان هدفهم الحفــاظ عليها من الاختلاط بغيرها، فضلاً عن النظرة المعيارية التي كانت مسيطرة على التفكير اللغوي في ذلك الوقت.

أمــا المستشرقون، فقد بدأت دراساتهم الأولى، في أحضان كليات اللاهوت، فأدركوا العلاقة بين العبرية والعربية والسريانية.[1] ويعد المستشرق الألماني (كارل بروكلمان) رائــد هذا المنهج؛ حيث ألف كتابه الضخم: (الأساس في النحو المقارن للغــات السامية) في جزءين، يضم الأول منهما: دراسات عن أصــوات اللغات السامية وأبنية الأسمــاء والأفعال فيها، كما يختص الثاني: بدراسة الجملة في اللغات السامية. وأكثر موضوعات هذا الجزء جديدة، لم يسبق إليه مؤلفه. وقد نشر الجزء الأول في برلين سنة 1908م، ونشر الثاني فيها سنة 1913م.

ولبروكلمــان نفســه كتابان صغــيران، يقتصران على موضــوع الجزء الأول مــن (الأساس)، يسمى الأول: (فقه اللغات الساميــة) نشره في ليبزج سنة 1906م. وقد ترجمه دكتور رمضان عبدالتواب إلى العربية، ونشر في جامعة الرياض سنة 1977م. أما الكتاب الثاني، فيسمى: (مختصر النحو المقارن للغات السامية) نشره في برلين سنة 1908م.

وجــاء بعده مستشرقون كــثر أمثال: (أوليري) الذي نشــر في سنة 1929م، كتابــاً بعنوان: (النحو المقارن للغات الساميــة) و(برجشتراسر) الذي ألف في عــام 1928م، كتاباً بعنوان: (المدخل إلى اللغــات السامية) كما ألقى في الجامعــة المصرية القديمة، محاضرات عن التطور النحوي، مقارناً العربية

(1) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبدالتواب (ص203).

باللغات السامية. وقد طبعت هذه المحاضرات تحت عنوان: (التطور النحوي للغــة العربية) بالقاهرة سنــة 1929م. وقد قام دكتــور رمضان عبدالتواب بتصحيــح أوهامه والتعليق عليــه، وطبع بالقاهــرة 1981م. و(موسكاتي)، الــذي نشر في روما سنة 1960م كتاباً بالإيطاليــة، عنوانه: (محاضرات في اللغــات السامية)... هذا إلى مئات المقــالات، التي تعالج موضوعات مفردة في شتى المجلات العلمية، الأوروبية والأمريكية كل هذه المؤلفات تعالج اللغات السامية، وفق المنهج المقارن.[1]

ويقــوم هذا المنهج على (مقارنة للظواهر الصوتيــة، والصرفية، والنحوية، والدلاليــة في اللغــات التي تنتمي إلــى مجموعة لغوية واحــدة أو عائلة لغوية واحدة).[2] وتتمثل أسس هذا المنهج فيما يلي:

1 – الحصول على أقدم الأشكال الثابتة- للكلمات أو الصيغ أو التراكيب في أقدم العصور.

2 – أن نضــع ما حصلنا عليه من اللغات التي يراد المقارنة بينها بعضها إلى جانب بعض.

3 – تبــين أوجــه الاتفاق والاختلاف فيما حصلنا عليــه من كلمات، أو صيغ، أو تراكيب.

4 – محاولة التركيب عن طريق استخلاص الأشياء المشتركة الغالبة المحتملة للغة المشتركة، التي انبعثت عنها اللغات موضوع المقارنة.[3]

وكان للمستشرقــين جهــود مشكــورة في مجــال تطبيــق المنهج المقــارن على فصيلة اللغات السامية. وللغــة العربية مكانة مميزة في الدراسات السامية

(1) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبدالتواب (ص203).
(2) معجم علم اللغة النظري (إنجليزي – عربي)، د. محمد على الخولي. ط 1 بيروت. 1982م.
(3) مدخل إلى علم اللغة الحديث د. عبدالفتاح البركاوي (ص 78) وما بعدها.

المقارنـة للمستشرقين، ودعا اللغويـون الألمان منهم (نولدكـه، وبروكلمان، وبرجشتراسـر، وولفنسون، واينولتيمان، وفيشر)، إلـى عدّها صورة قريبة مـن السامية؛ لاحتفاظهـا بكثير مـن الخصائص المشتركة، مـع تنوع هذه الخصائص أو تخصيصها أو تطويرها، ولهذا ليس بغريب أن يتطور المنهج المقـارن وتطبيقاته في العربية على أيـدي المستشرقين، وأن تكون الدراسات اللغوية المقارنة من أظهر دراساتهم.[1]

من آثار المنهج المقارن في دراسة المستشرقين للعربية:

كان لاستخـدام المنهـج المقـارن في دراسـة العربيـة آثار كثـيرة على كافة مستوياتهـا؛ المعجمية والصوتية والصرفية وغيرهـا.. فعن طريقه نستطيع التمييـز بـين اللفـظ الأصيل والدخيـل، والمعـرب والدخيل الـذي وفد على العربية من لغات أخرى، والفترة الزمنية التي استعارت فيه العربية الألفاظ الدخيلة... إلى غير ذلك.[2]

وهـذا جانب مـن تطبيـق المنهج المقـارن على الجانـب الصوتـي للفصيلة الساميـة؛[3] فلقـد استطاع الدارسون مـن المستشرقـين أن يكتشفوا بفضل هذا المنهج التحولات التي تخضع لها الوحدات الصوتية في اللغات السامية، وذلـك بمقارنـة هذه الوحـدات في اللغـات الساميـة المعروفـة، ومن خلال الأصـوات البـين أسنانية، وهـي: الثاء، والـذال، والظاء، والضـاد في اللغة الفصحى. والجدول الآتي يبين التحولات الصوتية:

---

(1) ينظر: العربية في ضوء المنهج المقارن دراسات المستشرقين الألمان نموذجاً. د. عبد الحسن عباس. (ص 184) مجلة اللغة العربية وآدابها. جامعة الكوفة. كلية الآداب. عدد (12).

(2) المستشرقون والمناهج اللغوية. عمايرة (ص 61 وما بعدها). وقد ذكر أمثلة ونماذج كثيرة لمدى استفادة العربية من المنهج المقارن في مستوياتها اللغوية المختلفة.

(3) علـم اللغة العـام أسسه ومناهجه. د. عبـد الله ربيع بالاشتراك مع د. عبدالفتـاح البركاوي (ص120) وما بعدها.

السامية	العربية الفصحى	العبرية	الآرامية	الأكادية	الحبشية
ث	ث	ش	ت	ش	س
ذ	ذ	ز	د	ز	ز
ظ	ظ	ص	ط	ص	ص
ض	ض	ص	ق+ع	ص	ض

ومن الممكن قراءة هذا الجدول هكذا:

1 – صوت الثاء في اللغة السامية المشتركة لم يتغير في العربية الفصحى، في حين تحول في العبرية والأكادية إلى (شين) وفي الآرامية إلى: (التاء) وإلى: (السين) في الحبشية. فكلمة (ثور) في السامية المشتركة بقيت كما هي في العربية، وتحولت إلى: (شور) في العبرية والأكادية، وإلى: (تور) في الآرامية السوريانية، وإلى: (سور) في الحبشية.

2 – صوت الذال تحول إلى: (الزاي) في العبرية والأكادية، والحبشية، وإلى (الدال) في الآرامية، وحافظت عليه العربية كما هو. فكلمة (أخذ) المفترض وجودها في اللغة السامية الأم تحولت إلى: (أَحَدْ) في الآرامية، وإلى: (أَحَزْ) في العبرية، وإلى: (أخز) في الأكادية والحبشية.

3 – أما صوت الظاء فقد حافظت عليه العربية كما هو في اللغة الأم، وتحول إلى: (صاد) في: العبرية والأكادية والحبشية، وإلى: (الطاء) في الآرامية، مثال ذلك كلمة (ظل) التي يقابلها في الأكادية (صلو)، وفي العبرية: (صيل)، وفي الحبشية: (صلالوت)، وفي الآرامية: (طلالا)، وقد بقيت الكلمة كما هي في اللغة العربية تنطق: (ظل).

4 – أما صوت (الضاد) فقد حافظت عليه العربية والحبشية كما هو، وتحول إلى: (صاد) في العبرية والأكادية، وإلى: (القاف) في الآرامية القديمة،

وإلـى (العـين) في الآرامية- السوريانيـة-، مثل كلمة: (أرضـ) يقابلها في العبريـة: (أرص)، وفي الأكادية (أرصيتـو)، وفي الآرامية القديمة: (أرقا) وفي الآرامية السوريانية: (أرعا)، وفي العربية والحبشية: (أرض).

ولم يقتصـر أمـر مقارنة اللغات الساميـة على المستـوى الصوتي، بل شمل المستوى الصرفي، والنحوي، والدلالي.

فعلـى المستوى الصـرفي خلص العلماء إلـى أن صيغة (أفعـل) الدالة على التعديـة في العربية، تقابلها صيغة: (هفعل) في العبرية، والآرامية القديمة، وصيغة: (شفعل) في الأكادية، والأجرياتية، والعربية الجنوبية.

وفيمـا يتصل بالمستـوى النحوي لاحظ الدارسون من خـلال منهج المقارنة وتطبيقـه على اللغات الساميـة أن ظاهرة الإعـراب أي الدلالة على المعاني النحويـة نحو: الفاعلية والمفعولية بالعلامات الإعرابية المعروفة لنا- سامية الأصل، وتشترك فيه مع العربية: الأكادية، والأجرياتية، وبقيت بعض حالات في الحبشية والعبرية.

أمـا فيما يتعلق بدلالة الكلمات، فقد تبين لهـم أن معظم الكلمات الأساسية تشـترك فيها اللغـات السامية نحو كلمات: (الناس، الذكـر، الأنثى، الابن، الأم، الأب...) وغيرهـا، ويمكـن مراجعـة المزيـد من خـلال القائمة التي أعدها (برجشتراسر) في كتابه (مقدمة في علم اللغات السامية).[1]

المنهج الوصفي:

إذا كان المنهـج المقـارن يتنـاول بالدراسـة أكثر من لغة، والمنهـج التاريخي يتناول اللغة خلال مراحل زمنية متعاقبة، فإن المنهج الوصفي يقوم بدراسة لغـة واحدة أو لهجة واحـدة في زمان ومكان معينين، من جوانبها: الصوتية،

(1) مدخل إلى علم اللغة الحديث. د. البركاوي (ص 83).

والصرفية، والنحوية، والمعجمية.

وقد ظل الباحثون في القرن التاسع عشر يستخدمون المنهجين -المقارن والتاريخي- في دراسة اللغة حتى جاء (دو سوسير) وفصل بين الدراستين الوصفية والتاريخية، فابتعد عن النظر في اللغات من وجهة النظر التاريخية أو المقارنة، وأكد على أن أفضل منهج لدراسة اللغة هو أن نحاول وصفها كما هي في مدة زمنية محددة، وأن نصل من هذا الوصف إلى القواعد أو القوانين العامة التي تحكمها، أو نتوصل على الأقل إلى معرفة البنية أو التركيب الهيكلي لها، فابتعد عن المنهج السابق في تعقيد تلك القوانين بمحاولة إخضاع اللغات الحديثة لقواعد اللغتين اليونانية واللاتينية. وقد أصبح المنهج الوصفي من أوائل القرن العشرين وحتى الآن هو الذي يسود علم اللغة الحديث الآن.[1]

ويمكن التفريق بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي؛ فالمنهج التاريخي: يهتم باللغة المكتوبة التي دونت في وثائق بغض النظر عن جانبها المحكي المنطوق. بينما يدرس المنهج الوصفي اللغة المنطوقة لذا فهو يحتفي باللهجات.

من آثار المنهج الوصفي في دراسة المستشرقين للعربية :

أ- تحديد مستوى الأداء وطرائقه المختلفة التي يسلكها المتكلمون للتعبير، وقد وضع المستشرقون عدة تقسيمات للعربية، مثل: قديمة، ومعاصرة، أو فصحى تراثية ومعاصرة، أو عربية كلاسيكية، وعربية معاصرة مكتوبة.[2]

---

(1) البحث اللغوي: كيفيته، مناهجه. فوزي يوسف الهابط. (ص105)، القاهرة : دار الولاء، 1993 م، 1413هـ.

(2) ينظر: بحوث في الاستشراق واللغة. د. إسماعيل عمايرة: (ص 295، 302، 323، 326)، وقد سبق أن ذكرنا أن إطلاق مصطلح الكلاسيكية على العربية الفصحى يعد إسقاطاً لما يُسمّيه الغربيون باللغات الكلاسيكية مثل: اللاتينية، واليونانية؛ وهذا خلط يقع فيه كثير من المستشرقين؛ حيث لا يميزون بين مفهوم الكلاسيكية من واقع لغاتهم -وهو مفهوم تاريخي يدل على أن تلك اللغات قد انتهت من واقع

وقد أدّى تحديـد المستوى الأدائي إلى الاهتمام باللهجات العربية المحكية أو العاميـة. وظهر مع الاهتمام باللهجات مـا عُرف باسم (الجغرافيا اللغوية، أو اللغويات الجغرافية)؛ فقد نُشر أول أطلس لغوي ألفه (جليرون وأدموند) اسمـه (الأطلـس اللغـوي لفرنسـا) عـام 1902م – 1920م، وقـد جـاءت الدراسة الجغرافية للهجات في بلاد الشام مزامنة لذلك الأطلس الفرنسي، فقـد نشر المستشـرق الألماني برجشتراسـر بحثه (الأطلـس اللغوي لسوريا فغلسطـين) سنة 1915م بعنوان: (Sprachatlas von syrien und palas-tina ZDPV 38 – (1915) 169–222)، وثمـة أطالـس جغرافيـة لدراسة اللهجـات العربيـة في مصر والشام والمغرب، وهي مـن أعمال المستشرقين. وفي هـذا ما يدل على الاتصال والتزامـن الوثيقين بين ما يطبق على اللغات الأوروبيَّـة والشرقيَّة، وقد انعكس الاتجاه العام للبحث في اللهجات الأوروبية على دراسـات المستشرقـين، فقد أخذوا يولـون اللهجـات العربية الحديثة عناية خاصة.[1]

ب- الاهتمام بالجانب الصوتـي في دراستهم للعربية، ويرجع ذلك لأسباب منهـا: اهتمام المنهـج الوصفي بالظاهـرة اللغوية منطوقـةً، وثانيها: ظهور التغـيّر اللغوي علـى المنطوق بشـكل أدق، وثالثها: ما للأصـوات اللغوية من أثـرٍ مهم ورئيس في النظم اللغوية، فبالأصـوات تبنى الكلمات، ومن التتابع المنظّم والمقصود للكلمات تنشأ الجمل.[2]

الاستعمال اللغوي- ومفهوم الفصحى، وهو ليس مفهوماً منقطعاً عن الحاضر بالنسبة إلى اللغة العربية؛ فالعربيـة الفصحـى تلتقي مع تلك اللغات في مفهوم القدم، وتفـترق عنها في أنها ما زالت مستعملة إلى اليوم بينما هذه اللغات لم تعد مستعملة. (المستشرقون والمناهج اللغوية):(ص 122، 124).

(1) ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية: (ص 118، 121).

(2) ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية: (92، 131، 134). وينظر: البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمـان. العربيـة أنموذجاً. عبدالحسن عباس حسن الزويني. (ص 201) رسالة ماجستير قدمها إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الكوفة. 2010م.

ج- نقد معيارية نحاة العربية، وبعض مصطلحاتهم واهتماماتهم، مما جعل بعض المستشرقين الألمان يُصنّفون كتباً في النحو العربي، إمّا تستبعد تقعيد النحاة العرب وشواهدهم، أو تضع تفسيراً منطقياً جديداً للقواعد العربية، وقد ألف (هاينريش إيفالد) كتابه: دراسة نقدية لقواعد اللغة العربية. الذي كان محاولة لوضع تفسير منطقي جديد لصيغ اللغة مكان نظام قواعد العربية الفصحى،[1] ثمّ جاء المستشرق الألماني المعاصر فيشر، الذي تراكم عنده نقد المصطلحات والمنهج، فألّف كتابه: نحو العربية الفصحى؛ ليكون وصفاً شاملاً في قواعد العربية الفصحى التراثية على نمط التفكير الأوروبي في وصف اللغات الأوروبية.[2]

المنهج الوصفي ودعوة المستشرقين إلى العامية:

هناك فارق بين نظرة المستشرقين وطريقتهم في دراسة اللهجات العامية، وبين نظرة اللغويين العرب؛ فالعرب كانت دراستهم للهجات دراسة معيارية؛ فكانوا ينظرون إلى العامية وغيرها من لهجات تبتعد أو تقترب من الفصحى المشتركة -التي ارتضاها العرب ونزل بها القرآن- نظرة معيارية تقوم على النقد والتمحيص.

بينما نظر لها بعض المستشرقين نظرة وصفية تدرسها كواقع لغوي يتعامل به الناس في المجتمعات العربية في ذلك الوقت.. ولعل سبب محاولة بعض المستشرقين تقعيد العامية والاهتمام بها كواقع لغوي، هو تأثرهم بالمنهج الوصفي الذي شاع في ذلك الوقت في الدراسات اللغوية الغربية، وكان تطوراً للمنهج التاريخي الذي ظل ردحاً من الزمن هو السائد في الدراسات اللغوية الغربية.

(1) ينظر: تاريخ حركة الاستشراق. (الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين). يوهان فك:(ص 167). ترجمة: عمر لطفي العالم. دار المدار الإسلامي. ط الثانية 2001م.

(2) ينظر: بحوث في الاستشراق واللغة: (ص 324).

وكان المنهج التاريخي أسبق في الظهور من المنهج الوصفي؛ إذ كان ظهوره — كما أشرنا – في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بينما كان ظهور المنهج الوصفي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان من آثار هذا اهتمام المستشرقين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالعربية التراثية؛ نظراً لتأثرهم بالمنهج التاريخي، ثم توجهوا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى الاهتمام بدراسة اللهجات المعاصرة.[1]

وربما يفسر لنا هذا انقسام المستشرقين في النظرة تجاه العربية؛ فالذين درسوا العربية وفق المنهج التاريخي، درسوها في جانبها المدون والتراثي، فكانت نظرتهم أكثر عمقاً وتفهماً، ولما نشطت الدراسات الوصفية تغيرت هذه الوجهة، ونظروا إلى اللغة من جانبها المنطوق بعيداً عن الجانب المدون، فأرادوا تقعيد هذا الواقع اللغوي والتعامل معه كما هو، بعيداً عن النظرة المعيارية أو النظرة التاريخية.

وقد بلغ من اهتمام المستشرقين باللغة (العامية) الدارجة أن عدوها من اللغات الجديرة بالدراسة دون الفصحى، وقد بلغ الحال ببعضهم إلى إنكار أن تكون الفصحى لغة حيَّة قياساً على اللغتين اليونانية واللاتينية، وهذا ما فعله الخوري مارون غصن في كتابه: (حياة اللغات وموتها، اللغة العامية) الذي أصدره عام 1925م، فقد راح يؤبن اللغة العربية الفصحى انطلاقاً من افتراض أن كل لغة سائرة إلى الفناء.[2]

(1) ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايرة. (ص22، 23).
(2) المرجع السابق. (ص111).

المبحث الرابع

المستشرقون وأبعاد الدَّعوة إلى العاميَّة

أولاً: المستشرقون والدَّعوة إلى العاميَّة

رأينا فيما سبق أن عدداً من المستشرقين وقفوا موقفاً إيجابياً تجاه العربية الفصحى، من خلال جهودهم التي بذلوها تجاه العربية عموماً، فضلاً عن الإشادة بها، والاعتراف بقيمتها ومكانتها، لكن إلى جانب هؤلاء نشط مستشرقون آخرون في النيل منها ودعوا إلى استبدالها بالعامية، واتهموها بعدم القدرة على مسايرة الحياة المعاصرة.

وتذكر الدكتورة نفوسة زكريا في كتابها (تاريخ الدعوة إلى العامية) مظاهر اهتمام الأوروبيين بدراسة اللهجات العربية المحلية (العامية) منذ القرن التاسع عشر.. ومن ذلك أنهم:

أدخلوا تدريس العامية في مدارسهم وجامعاتهم، واهتموا بالتأليف فيها، وأخذوا يؤلفون بأنفسهم في كل لهجة من اللهجات العربية؛ ولكن مؤلفاتهم في اللهجة المصرية هي التي وضحت فيها أهدافهم الحقيقية من دراسة اللهجات العربية والمحلية، وهذه المؤلفات على اختلاف موضوعاتها قد اتحدت في هدف واحد هو السعي لإقصاء العربية الفصحى عن الميدان الأدبي وإحلال العامية محلها.[1]

وأول من حث على التحول عن الكتابة باللغة العربية من المستشرقين المستشرق الألماني الدكتور ولهم سبيتا، الذي نزل مصر، وعاش في أحيائها، ودرس العاميّة، ووجد أنها تختلف من بلد إلى بلد، ومن حي إلى حي. وفي سنة (1880م) ألّف كتاباً سمّاه (قواعد اللغة العامية في مصر)، وقد كشف في مقدمة كتابه عن الغرض الذي يرمي إليه فقال: وأخيراً سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طوال مدة جمع هذا الكتاب،

(1) تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. د. نفوسة زكريا (ص9 وما بعدها) دار نشر الثقافة بالإسكندرية. ط الأولى 1964م.

وهو أمل يتعلق بمصر نفسها، ويمس أمراً هو بالنسبة لها وإلى شعبها يعرف إلى أيٍّ حد كبير تتأثر كل نواحي النشاط فيها، بسبب الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة.[1]

وقد استهدف (سبيتا) أن يجعل للعامية تراثاً، فقام بجمع ونشر العاميات من الأحاديث والفكاهات والكلمات، وجعلها مقدمة لعمل من جاء بعده، كما عمد إلى وضع حروف إفرنجية للعامية المصرية لأجل إحيائها، وألف في صرفها كتاباً، كما ألف في أمثالها وقصصها العامية، ونشر ذلك باللغتين الألمانية والفرنسية لترغيب أوروبا في تنفيذ مشروع تعليم اللغة العامية بالحروف الأجنبية.[2]

وقد أيد المستشرق الألماني سبيتا اللورد دوفرين في تقرير وضعه سنة (1882م) دعا فيه إلى هجر العربية الفصحى وإحلال العاميّة المصرية محلها، وقال في تقريره: إنَّ أمل التقدم ضعيف في مصر طالما أنَّ العامَّة تتكلم اللغة الفصيحة العربية –لغة القرآن– كما هي في الوقت الحاضر.[3]

وفي سنة (1890م) ألَّف المستشرق الألماني كارل فولرس كتاباً سماه (اللهجة العاميّة الحديثة في مصر)، ثم تولى ترجمته في سنة (1895م) إلى الإنجليزية (بوركيت) ووصف العربيّة الفصحى بالجمود والصعوبة وشبهها باللاتينية، وشبه العامية بالإيطالية.[4] واقتصر هذا الكتاب –مثل سبيتا– على دراسة لهجة أهل القاهرة.[5]

---

(1) أباطيل وأسمار، محمود شاكر، (ص 161، 162). وأجنحة المكر الثلاثة، عبدالرحمن الميداني، (ص 301).

(2) ينظر: الفصحى لغة القرآن د. أنور الجندي (ص 130).

(3) أباطيل وأسمار، (ص 164).

(4) أجنحة المكر الثلاثة، (ص 301)، وأباطيل وأسمار (ص 165).

(5) فلسفة الاستشراق، أحمد سمايلوفتش، (ص 670).

ثــم أتى بعده المهندس المبشر الإنجليزي وليــم ولكوكس الذي كان مهندساً للري فألقى محاضرة ونشرها في مجلة الأزهر التي آلت إليه سنة (1893م) وزعم فيها أنَّ الذي أخَّر عامَّة المصريين عن الاختراع هو كتابتهم بالفصحى، ودعــا إلى التأليـف بالعاميّة، وقال مخاطباً الناس في نــادي الأزبكية: (أيها المصريــون، لن تزالوا قادرين على إيجاد قــوة الاختراع لديكم.. فإنه يوجد فيكـم أناس كثـيرون توفرت فيهم الشــروط ولكن بسبب عــدم وجود لسان علمــي مشهور فيما بينكم لم تحصلوا علــى شيء أضعتم أعمالكم سدى؛ إذ السبــب في ذلك أنَّ الكتــب العلمية الدنيوية يؤلفهــا أربابها مثل الجبال وفي آخــر الأمر لا يلد هــذا الكلام الصعب إلا فأراً صغـيراً وما نشأ ذلك إلا من كون اللسان العلمي غير مشهور فيما بين العامة... أقول لكم إذا جنحتم إلى هــذه اللغة الدارجة القوية الشهيرة فيما بينكم، وتركتم هذه اللغة الضعيفة تمنحون كثيراً).[1]

وقــد خطا بهذا الاقــتراح خطوة عمليّة، فترجم أجــزاءً من الإنجيل إلى ما سماه اللّغة المصريّة ونوه سلامة موسى بعمل ويلكوكس وأيده.[2]

وقــد تصــدى لدعوة ويلكوكس كثير مــن الكتاب والمفكريــن في ذلك الوقت؛ منهــم عبدالله النديم الــذي أصدر صحيفــة الأستاذ عــام 1892م، وكتب فيهــا يرد علــى ويلكوكس: (إننــا نعلم علم اليقــين أنه لو ظهــر ألف داع بل مئــات الألــوف من دعــاة أوروبا لاستعمال لغــة تميت لغة القــرآن ما وجدوا آذانــاً سامعة)، وبعــد أن تساءل عما عسانا نصنع بكتبنــا وتراثنا إذا كتبنا بالعامية... أنحرقها أم نترجمها إلى العامية؟ وماذا عسانا نصنع بالقرآن؟ هل نقرؤه باللغة العامية والمسلمون يعتقدون أن تغيير حرف منه كفر؟

---

(1) المرجع السابق، (ص 673،672).

(2) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد حسين، (2/ 361،360)، مؤسسة الرسالة. ببيروت.

وكان النديم يخصص في صحيفة (الأستاذ) من عددها الأول 1892/8/23 باباً للعامية شرح فيه الضرورة الملحة إليها، وحدد لها مجالها الذي لا يحل أن تتجاوزه... ولكنه لما أحس خطر الحملة على الفصحى تصدى لويلكوكس، ثم صمم على إغلاق باب العامية في صحيفة (الأستاذ).[1]

بعد ويلكوكس خرج أحد قضاة المحاكم الإنجليز وهو سلدن ولمور فألّف هو الآخر كتاباً سماه (العربية المحليّة في مصر) سنة 1901م. دعا فيه إلى اتخاذ العاميّة لغة أدبية، ويهدد أننا إذا لم نفعل ذلك (فإنَّ لغة الحديث العاميّة ولغة الأدب ستنقرضان وستحل محلهما لغة أجنبية نتيجة الاتصال بالأمم الأوروبية)، ثم ختم كلامه بأنّ: (خير الوسائل لتدعيم اللغة العاميّة هي أن تتخذ الصحف الخطوة الأولى في هذا السبيل، ولكنها ستكون في عون من أصحاب النفوذ...). ومما قاله في كتابه هذا: ومن الحكمة أن ندع جانباً كل حكم خاطئ وُجِّه إلى العامية، وأن نقبلها على أنها اللغة الوحيدة للبلاد.[2]

وفي سنة (1926م) ظهر كتاب (المقتضب في عربيّة مصر) لفيلوت وباول اللذين اتجها فيه وجهة علمية لتسهيل دراسة العاميّة المصريّة... تلك التي ضاعت كرامتها -على حد قولهما- بتركها تنساب مفككة من دون ضوابط حتى أصبحت لا وجود لها كلغة مكتوبة ولم يفتهما أيضاً أن يرددا الشكوى من صعوبة اللغة العربيّة الفصحى وخاصة حروفها الخالية من حروف الحركة.[3]

وقد ناصر الدعوة إلى العامية عدد من العرب والمصريين، وتبنوا آراء المستشرقين، ومن هؤلاء: إسكندر المعلوف في مقالات له نشرت بمجلة الهلال

---

(1) ينظر: لغة الحضارة وتحديات المستقبل د. عبدالعزيز شرف (ص 324).

(2) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (360/2).

(3) فلسفة الاستشراق، (ص 670).

سنـــة 1902م، وسلامـــة موسى الذي أحيا دعـــوة (ويلكوكس) على صفحات مجلة الهلال سنة1926.[1]

وقـد رافق هـذه الدعوة إلى العاميـة إثارة الشبهات حـول الفصحى، والتي منهـا: قصور اللغة العربية عن التطور الحضـاري وعجزها العلمي. صعوبة نطقها وصعوبـة كتابتها. ارتفاع مستواها عن فهم الناس. التفاوت فيها بين طريقة النطق وطريقة الكتابة.[2]

وحرص المستشرقون الذين دعوا إلى العاميـة على إثارة كثير من الشبهات حـول الفصحى؛ وحرصوا على أن تكون شبهاتهم هذه من المسلمات؛ ولذلك انتقلوا مـن مناقشتها في أساسها، إلى طرح أساليب ووسائل أخرى للخروج بالعربية مـن تلك الأزمات التي اختلقوها، ليؤيـدوا دعواهم بعجز العربية، ودعوتهم إلى العامية. ومجمل تلك الوسائل والأساليب:

- كتابة اللغة العربية أو العاميَّة بالحرف اللاتيني.
- الدعوة إلى العاميَّة، وتقعيدها.
- إهمال الإعراب.
- الدعوة إلى تطوير اللغة والتصرف فيها.
- الدعوة إلى لهجات مختلفة تكون لغات رسمية لكلِّ بلد عربي.
- الدعوى بأنَّ الفصحى تقضي على قوة العرب الاختراعيّة.[3]

(1) ينظر: الفصحى لغة القرآن د. أنور الجندي (ص 130).

(2) ينظـر: بحـوث ومقـالات في اللغـة: د. رمضـان عبد التواب (ص 166 – 187)، ط الثانيـة، 1408هـ– 1988م، مكتبـة الخانجي– القاهرة، والإسـلام في وجه التغريب (مخططـات التبشير والاستشراق): أنور الجندي: (ص 355)، دار الاعتصام، القاهرة، (بدون تاريخ).

(3) ينظر: فلسفة الاستشراق (ص 668).

ثانياً: أبعاد الدعوة إلى العامية

برغم هذه الدعوات الصريحة من قبل بعض المستشرقين للدعوة إلى العامية والانتقاص من الفصحى، ومن خلال متابعتنا لدعاوى ودعوات هؤلاء المستشرقين، وانتصارهم للعامية على حساب الفصحى؛ فإنه كانت هناك أبعاد مختلفة هيأت لهذه الدعوة وساهمت فيها؛ فقد تزامنت هذه الدعوات مع تراجع واضح للفصحى على ألسنة أهلها، فضلاً عن وجود الازدواجية اللغوية منذ زمن، وإن كانت الهوة قد ازدادت اتساعاً بين الفصحى والعامية، مما أغرى هؤلاء المستشرقين لاستغلال الفرصة، وإن كنا لا ننفي أن يكون البعض منهم قد تأثر بالمناهج العلمية في دراسة اللغة في ذلك الوقت، خاصة مع شيوع المنهج الوصفي في الدراسات الغربية الذي كان ينظر للغة في واقعها المنطوق بعيداً عن الجانب المدون منها، فجاءت دعوته متأثرة بهذه المنهجية، وبرغم هذا فإن هذه الدعوة إلى العامية من قبل هؤلاء المستشرقين قد أسهمت في بث روح الغيرة على الفصحى، وجاءت بنتيجة مغايرة لما كانت ترمي إليه، فأتبعتها يقظة أدبية ولغوية، وبعث جديد للعربية عموماً؛ إبداعاً واهتماماً ونشراً وتحقيقاً.

وسنقف بشيء من التفصيل مع هذه الأبعاد التي رافقت الدعوة إلى العامية من قبل هؤلاء المستشرقين:

أولاً: تزامن هذه الدعوات مع تراجع الفصحى

تزامنت هذه الدعوات مع تراجع الفصحى، فقد انحدرت إلى غاية السقم والضعف مجهدة بصراعها مع التركية التي فرضها العثمانيون لغة رسمية للدواوين والتعليم.(1)

وتشير د. عائشة عبدالرحمن إلى أن الدعوة إلى نبذ الفصحى بدأت تتسلل

(1) ينظر: لغتنا والحياة. د. عائشة عبدالرحمن (ص 98)، دار المعارف. مصر. ط. الثانية.

إلى أفق مصر في عهد أزمتها بالتدخل الأجنبي في عصر إسماعيل.[1]

ويوضح لنا سعيد الأفغاني حال العرب والعربية في دمشق في مختتم القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إذ يقول: ... فيكفي أن تعرف أن رسالة يأتي بها البريد إلى أحد الناس فيدور بها على أهل حيِّه ثم على الحي المجاور، فلا يجد أحداً يفك حروفها لينبئه بمضمونه، والذين كانوا يعرفون الأربعة في الحساب من تجار سوق (مدحت باشا) في دمشق يعدون على الأصابع.[2]

ويقول يوهان فك في كتابه العربية: كانت الحقبة التي عاشها العرب تحت حكم العثمانيين أحلك قرون التاريخ العربي لا من الوجهة السياسية فحسب بل من الوجهة اللغوية كذلك.[3]

هذا فضلاً عن تراجع الأدب العربي شعراً ونثراً قبل صحوته وبعثه من جديد على يد البارودي وشوقي وحافظ وغيرهم في الشعر، وفي النثر على يد المنفلوطي والرافعي وغيرهم. وكان هذا مظهراً من مظاهر تراجع الفصحى عموماً.

وفي هذه الأثناء ظهر ولهلم سبيتا 1880 م – كأول مستشرق يدعو صراحة إلى العامية – بأفكاره القائلة إن العربية صائرة إلى الموت على نحو ما ماتت اللاتينية من قبل، وتوقع أن تخلف العامية الفصحى في ميدان الاستعمال.

وتذهب الدكتورة عائشة عبدالرحمن إلى أن (سبيتا) لم يتجه إلى خدمة الاستعمار مباشرة، ولا يتصور أن هذا المستشرق الألماني كان يعمل لحساب الاحتلال الإنجليزي، ولكنه تعامل مع العامية كواقع لغوي، في ظل انحسار الفصحى.[4]

---

(1) المرجع السابق (ص 99).

(2) ينظر: قراءة جديدة في قضية الدعوة إلى العامية. د. عبدالله أحمد خليل إسماعيل. مجلة الجامعة الإسلامية (ص 63) المجلد الخامس – العدد الثاني– يونية 1997م.

(3) العربية. يوهان فك (ص 239).

(4) ينظر: لغتنا والحياة. د. عائشة عبدالرحمن. (ص 100).

ويرى أحد الباحثين[1] أن (سبيتا) كان باحثاً مشبعاً بالفكر الداروينى الذي كان مشغلة الباحثين الأوروبيين أنفسهم، وربما كان على معرفة كذلك بالنتائج الطيبة التي أحدثتها الأبجدية الصوتية في أوروبا التي اتخذت من أصوات الكلام العامي وسيلة للقضاء على الأمية، ونشر التعليم. وأنه أقام آراءه في الدعوة إلى العامية على المبادئ الداروينية التالية:

1 – إن اللغة هي المنطوقة أي المحكية، واللغة المحكية تظهر عليها بجلاء علامات النمو والتطور والشيخوخة أكثر بكثير من اللغة المكتوبة، وقد اعتد (سبيتا) باللغة المنطوقة واعتبرها لغة الحياة.

2 – اعتبار اللغة كائناً حياً، يجري عليها ما يجري على الكائنات الحية، من نمو وتطور، وتغير، وهرم ثم موت وهذا أصل راسخ من أصول الفكر الدارويني قال به (سبيتا) حين ذهب إلى أن العربية الفصحى صائرة إلى الفناء في ظل المعطيات المتاحة أمامه.

3 – التناحر على البقاء... واللغة العامية عند (سبيتا) كائن حي يتناحر مع الفصحى، وهي في رأيه في طور الانتصار عليها.

4 – بقاء الأصلح... والعامية بحيويتها عند (سبيتا) أكثر قدرة على البقاء من الفصحى، وهي –أي العامية– أصلح للحياة من الفصحى لاستعدادها استيعاب المصطلحات، ولأنها –في نظره– هي التي ستكون المخلص من الأمية والفقر الثقافي، وما ينشأ عنهما من انحطاط سياسي وتخلف اجتماعي.

ويرى أن أفكار (سبيتا)... لم تخرج بعيداً عن الأوراق التي كتبت عليها، لأن صاحبها كتبها بالألمانية، التي كانت نادرة الانتشار في العالم العربي، لذلك يصح لنا اعتبار أفكاره فترة مبتورة في تاريخ الفكر اللغوي العربي.[2]

(1) د. عبدالله أحمد خليل إسماعيل.: قراءة جديدة في قضية الدعوة إلى العامية مجلة الجامعة الإسلامية (ص 63).

(2) المرجع السابق.

ثانياً: قدم قضية الفصحى والعامية

مصطلـح العامية مصطلح قديم، وقضية اخـتراق العامية للفصحى قضية قديمة أيضاً تناولها علماؤنا الأوائل، ووقفوا بالمرصاد لاختراقات لغة العوام للفصحى، بل بذلوا جهوداً مضنية لسد الثغرات، والمنافذ التي كانت العامية تحاول الولوج منها لتعكر على الفصحى صفوها.

وكمـا يقول د. شوقي ضيـف: (أخذ لحن العوام في النطـق بكلمات العربية يتكاثـر منـذ النصف الثـاني من القرن الثـاني للهجرة مما دفـع الكسائي مؤسسـ مدرسـة النحو الكوفيـة، وأحد القـراء السبعة المشهوريـن للقرآن الكريم يؤلف كتابه (ما تلحن فيه العوام) لكي يصلحوا ما حدث في ألسنتهم من تحريف الكلام الفصيح، وظل أئمة العربية بعده يعنون بالتأليف في هذا الموضوع وتوالت مؤلفاتهم).[1]

وقد استعمل العرب العامية للدلالة على مستوى اللغة العربية الذي يستعمله سـواء النـاسـ وعامتهم في التعبير عن أغراضهم، ومـا العامية في رأيهم إلا الوجه الآخر للفصحى محرفاً قليلاً أو كثيراً على ألسن الناس ونطقهم. وفي القـديم كانت الفروق بين اللهجات تكاد تقتصـر على الخصائص النطقية والعـادات الصوتيـة، وما عرض لهـا اللغويـون القدامى مـن أمثلة تخالف اللغـة الموحدة المطردة في الفصاحة كان قليلاً... ولم تكن نظرة العلماء إلى اللهجـات مقرونة بالريبة والتخوف بقدر مـا كانت مشوبة بالاستنكار وعدم الرضـا، ولهـذا صنفوا اللهجـات في أدنى مراتـب الفصاحـة... ووصفوها بالمذمومة والقبيحة والرديئة والمرغوب عنها.[2]

---

(1) تحريفات العامية للفصحى د. شوقي ضيف (ص 3)، دار المعارف. (د. ت).

(2) ينظـر: الفضائيـات واللغة مسعود بوبو مجلة الفيصل السعودية (صـ 46) عدد (259) المحرم 1419 هـ. مايو سنة 1998م.

وكان اللغويون ينظرون للهجات بعين النقد والتمحيص لا بعين الحصر والتجميع، لذا نراهم وضعوا معايير للفصاحة ومعايير لأخذ اللغة عن القبائل، وكثرت في كلامهم مصطلحات تدل على نقد بعض اللهجات مثل (لغة رديئة، لغة شاذة، لغة ضعيفة) إلى غير ذلك من المصطلحات التي تدل على قبول اللهجة أو استهجانها، وكان دافعهم لذلك هو حماية الفصحى.

وإذا سلمنا جدلاً لبعض اللغويين الذين يقولون بوجود مستويين للغة في المجتمع الجاهلي، ومن بعده في المجتمع الإسلامي، حيث قالوا بوجود مستوى فصيح تمثل في اللغة الأدبية التي خطب بها الخطباء، وشعر بها الشعراء، ونزل بها القرآن الكريم، وهذه لم تكن لغة تخاطب للناس في حياتهم العامة... أما لغة التخاطب فهي تلك اللغة التي كان يتكلم بها الناس ويؤدون بها شؤونهم لا يعمدون إليها عن قصد ولا يتخيرون ألفاظها.[1]

فإذا سلمنا بذلك فإننا لا نسلم بأنه كان هناك فرق كبير بين المستويين، أو كان بينهما هذا الاتساع الشاسع الذي بين الفصحى والعامية في الواقع المعاصر.[2]

وحينما اتسعت المسافة بين المستوى الفصيح والمستوى اللهجي أو العامي، أدى ذلك إلى بروز هذه الدعوة إلى العامية التي بدأها المستشرقون.

ثالثاً: الدعوة إلى العامية والمناهج اللغوية

هناك فارق بين نظرة المستشرقين وطريقتهم في دراسة اللهجات العامية، وبين نظرة اللغويين العرب؛ فالعرب كانت دراستهم للهجات دراسة معيارية؛

(1) ينظر: في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس (ص 43) مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة التاسعة: 1995م.

(2) ينظر: اللهجات العربية في معجم المصباح المنير. السيد عبدالحليم مصطفى. (ص 5، 6). رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر بالقاهرة.

فكانوا ينظرون إلى العامية وغيرها من لهجات تبتعد أو تقترب من الفصحى المشتركة -التي ارتضاها العرب ونزل بها القرآن- نظرة معيارية تقوم على النقد والتمحيص.

بينما نظر لها بعض المستشرقين نظرة وصفية تدرسها كواقع لغوي يتعامل به الناس في المجتمعات العربية في ذلك الوقت.. ولعل سبب محاولة بعض المستشرقين -التي أشرنا إليها- تقعيد العامية والاهتمام بها كواقع لغوي هو تأثرهم بالمنهج الوصفي الذي شاع في ذلك الوقت في الدراسات اللغوية الغربية، وكان تطوراً للمنهج التاريخي الذي ظل ردحاً من الزمن هو السائد في الدراسات اللغوية الغربية.

ويمكن هنا التفريق بين المنهج التاريخي والمنهج الوصفي؛ فالمنهج التاريخي: يهتم باللغة المكتوبة التي دونت في وثائق بغض النظر عن جانبها المحكي المنطوق. بينما يدرس المنهج الوصفي اللغة المنطوقة لذا فهو يحتفي باللهجات.

وكان المنهج التاريخي أسبق في الظهور من المنهج الوصفي؛ إذ كان ظهوره في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بينما كان ظهور المنهج الوصفي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وكان من آثار هذا اهتمام المستشرقين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالعربية التراثية؛ نظراً لتأثرهم بالمنهج التاريخي ثم توجهوا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى الاهتمام بدراسة اللهجات المعاصرة.[1]

وربما يفسر لنا هذا الانقسام في النظرة تجاه العربية -الذي أوضحناه في المبحث الأول- فالذين درسوا العربية وفق المنهج التاريخي، درسوها في

(1) ينظر: المستشرقون والمناهج اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايرة. (ص 22، 23) دار حنين. عمان. الأردن. ط الثانية 1992م.

جانبها المدون والتراثي، فكانت نظرتهم أكثر عمقاً وتفهماً، وإعجاباً في بعض الأحيان، ولما نشطت الدراسات الوصفية تغيرت هذه الوجهة ونظروا إلى اللغة من جانبها المنطوق بعيداً عن الجانب المدون، فأرادوا تقعيد هذا الواقع اللغوي والتعامل معه كما هو، بعيداً عن النظرة المعيارية أو النظرة التاريخية.

وقد بلغ من اهتمام المستشرقين باللغة (العامية) الدارجة أن عدوها من اللغات الجديرة بالدراسة دون الفصحى، وقد بلغ الحال ببعضهم إلى إنكار أن تكون الفصحى لغة حية قياساً على اللغتين اليونانية واللاتينية، وهذا ما فعله الخوري مارون غصن في كتابه: (حياة اللغات وموتها، اللغة العامية) الذي أصدره عام 1925م، فقد راح يؤبن اللغة العربية الفصحى انطلاقاً من افتراض أن كل لغة سائرة إلى الفناء.[1]

وهذا مستشرق آخر هو (وليم بولك) يقول في تقديمه لكتاب (العربية الفصحى الحديثة) لستتكيفتش متسائلاً ساخراً من تعلق العرب باللغة الفصحى: أليست اللغة قبل كل شيء مجرد وسيلة ومن ثم تقوم –بصورة أساسية– في ضوء الجوانب العملية؟ وإذا ما وجدت وسيلة أفضل متوفرة ألا ينبغي اتخاذها؟[2]

ونشير هنا إلى أمر مهم... هناك فارق كبير بين أن تدرس اللهجات لأسباب علمية وأن تدرس بغرض الدعوة لإحلالها محل الفصحى؛ فدراسة اللهجات العامية في حد ذاتها ليس أمراً معيباً أو محظوراً كما بالغ البعض في ذلك كرد فعل عنيف على ما قام به المستشرقون؛[3] فقد كان العرب القدماء يدرسون اللهجات بهدف الحفاظ على الفصحى وأيضاً التعامل معها كواقع

(1) المرجع السابق. (ص111).
(2) المرجع السابق. (ص112).
(3) المرجع السابق. (ص112).

لغوي يمكن تهذيبه وتقويمه ما أمكن. يقول د. عبدالصبور شاهين: لسنا ضد دراسة اللهجات كواقع لغوي، ولكنا ضد محاولة تمزيق الأمة العربية بتقطيع علاقتها بالفصحى، وهي المقوم الأساسي لأية وحدة عربية إسلامية.[1]

ويذكر د. عبدالصبور شاهين فكرة خلاصتها أن جل دعاة العامية هم من غير المتخصصين في الدراسات اللغوية، وقد أدى عدم معرفة هؤلاء بالدرس اللغوي إلى أن وقعوا في أخطاء ساذجة تدل على الجهل.[2]

وربما يشير بهذا إلى أن هذه الدعوات لم تقم على منهجية علمية، بقدر قيامها على قدر من العصبية والنيل من اللغة الفصحى، لذلك لم تجد هذه الدعوة رواجاً على الجانب العملي، أو صدى على أرض الواقع.

رابعاً: أثر هذه الدعوة إلى العامية في الصحوة اللغوية والأدبية

أحدثت هذه الدعوات صحوة لغوية وأدبية راقية، وظهور نهضة أدبية واسعة شعراً ونثراً عادت باللغة الفصحى إلى عصورها الزاهية، بل أضفت عليها روح المعاصرة، وكأنها كانت تستهدف الرد العملي على هذه الدعوات لإحلال العامية محل الفصحى، وعلى هذه الدعاوى التي اتهمت الفصحى بالقصور عن مسايرة مستجدات الواقع الحديث، كما صادفت أيضاً نهضة كبرى في طبع كتب التراث العربي والإسلامي، وزاد الإقبال على تعلم الفصحى وتعليمها وظهر جيل من الكتاب والشعراء والأدباء أثرى الحياة العربية، وبعث فيه روح الفصحى وأيقظها من سبات، ومن المفارقات أن اللغة الصحفية في تلك الفترة شهدت تطوراً مذهلاً في الأسلوب الأدبي الراقي.[3]

فالشعور العميق بالقلق والخوف من عاقبة فناء الفصحى قد دفع الباحثين العرب إلى النهوض بلغتهم للوصول بها إلى درجة الحياة، وقد سار البحث

(1) في علم اللغة العام د. عبدالصبور شاهين: (285)

(2) ينظر: في علم اللغة العام. د. عبدالصبور شاهين (ص 269).

(3) ينظر: اللغة العربية بين الفصحى والعامية خالد مفلح عيسى (ص101، وما بعدها).

اللغوي في اتجاهين عريضين:

الاتجاه الأول: خاص باللغة العربية الفصحى، فإن أصوات الداعين إلى العامية قد أثارت حفيظة الباحثين العرب الذين خفوا فرادى وجماعات إلى البحث في اللغة العربية ومميزاتها، وصلاحيتها للحياة والحضارة، وبيان صلتها باللغات الشرقية والغربية... مما أنعشها وأنعش البحث اللغوي بعد ركود طويل، ولا أراني أعدو الحقيقة إذا قلت: إن مجامعنا اللغوية فكرة، وحقيقة، وقراراتها، وجهود علمائنا في تنمية اللغة العربية، وتوسيعها، ورفدها بالمصطلحات العلمية، والفنية، والمعجمات العامة، والمتخصصة والمؤتمرات المتلاحقة، وتعريب التعليم الأساسي وقدر من الجامعي، واستشراف مستقبل الفصحى، إن ذلك كله كان بصورة أو بأخرى من الثمار الطيبة التي عادت بالخير العميم جراء الدعوة إلى العامية.

الاتجاه الثاني: خاص بالعامية وصلتها بالفصحى، ويتمثل ذلك في إقبال الباحثين العرب على دراسة ازدواجية اللغة باعتبارها ظاهرة لغوية تستحق البحث، وكذا دراسة أصول ألفاظ اللهجات المحلية، وقواعدها، وصلتها باللهجات العربية القديمة، ولغات الأمم التي كانت شائعة قبل الفتح، وكذا دراسة صلة العامية بالفصحى، والفصح الشوارد، وما تحفظه العامية، ووسائل توحيد اللهجات المحلية، وتقريبها من الفصحى، وتصور مستقبل اللهجات العربية، ودراسة الأدب الشعبي، ولغة المسرح والرواية خصوصاً لغة الشخصية إذا كانت من العوام، وكذا دراسة التطور اللغوي التاريخي للألفاظ العامية والفصيحة والأخطاء اللغوية الشائعة، وقدم العامية إلى غير ذلك من فيض المباحث التي غمرت مجلات المجامع اللغوية ومحاضر جلساتها، والتي أحدثت ما يمكن أن يوصف بأنه ثورة في حركة البحث اللغوي العربي.[1]

---

(1) ينظر: قراءة جديدة في قضية الدعوة إلى العامية د. عبدالله أحمد خليل إسماعيل (ص 75).

خاتمة

مــن خلال معايشتنا لهذا البحث يمكــن أن نوجز بعض الملاحظات والنتائج المستخلصة منه:

أولاً: بالــغ البعض في حكمه على الاستشــراق والمستشرقين، وربطه بالنزعة الدينية والتبشيرية، ويصعب تعميم هذا الحكم؛ حيث قام بعض المستشرقين بالرد على ما أثاره البعض الآخر من شبهات حول الإسلام وتراثه عموماً.

ثانيــاً: لم يكن المستشرقون على وجهة واحــدة تجاه التراث اللغوي، بل كانوا على درجــات متفاوتة ويمكن إرجاعهم إلى فريقــين: فريق منصف، وفريق متعصــب. وقد تفــاوت تعاملهم مع العربيــة والتراث اللغوي بنــاء على هذا التصنيف.

ثالثــاً: كانــت للمستشرقــين جهــود كبيرة في بعــث التراث اللغــوي، في كافة مستوياتــه؛ حيــث توافر عــدد كبير مــن المستشرقــين على دراســة العربية والاهتمــام بكل جوانبهــا ومستوياتها. وإلى جانب هــذا الاتجاه الإيجابي في بعــث التراث؛ كان هنــاك جانب سلبي استهدف التشكيــك في أصالة الأدب العربي، والنحو، وعدم قدرة العربية على استيعاب العلوم الحديثة.

رابعاً: تعددت دوافع المستشرقين في دراسة التراث العربي والإسلامي عموماً ولعل أظهر دافعين، كانا الدافع الديني والدافع السياسي، مع البعد المنهجي الذي كان بادياً في دراسات كثير من المستشرقين حول العربية، وإن اختلفت منهجية المستشرقين عن منهجية العرب تجاه اللغة.

خامســاً: تباينت نظرة المستشرقين المنهجية تجاه العربية عن نظرة العرب؛ فاللغويــون العرب تعاملوا مــع اللغة من منظور ديني؛ حيث كان الاهتمام بها منطلقــاً للاهتمــام والحفاظ على القــرآن الكريم، الذي نــزل بلسان عربي

مبين؛ بينما قامت منهجية المستشرقين على دراسة اللغة عموماً، دون التفريق بين مستوى ومستوى آخر، ودون النظر إلى فكرة الصواب والخطأ، بل كان التعويل في غالبه على الجانب التداولي؛ أي دراسة اللغة في صورتها المحكية والمنطوقة والمتداولة، إضافة إلى أنهم بحكم انتمائهم الديني لم ينظروا إلى اللغة، أو حتى القرآن الكريم بهذه النظرة المقدسة التي ينظر بها المسلمون للغتهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالقرآن الكريم كما يؤمن به المسلمون؛ فمن هنا نظروا إليه كنص عادي، ونظروا للغة أيضاً نظرة عادية، دون تمييز بين مستوى ومستوى آخر، إلا ما تفرضه المنهجية التي يتعاملون بها مع النصوص.

سادساً: عاب بعض المستشرقين وتبعهم بعض المحدثين العرب على اللغويين العرب منهجيتهم المتحفظة، التي تعاملوا بها مع العربية، متهمين إياهم بأنهم أضاعوا جزءاً كبيراً من اللغة، بسبب منهجهم المتحفظ في جمع اللغة ودراستها، ولا نسلم بهذا الاتهام؛ لأن اللغويين العرب كانوا حريصين على الحفاظ على اللغة وحمايتها من الذوبان مع غيرها من اللغات واللهجات الدخيلة في ذلك الوقت.

سابعاً: جاءت أحكام بعض المستشرقين في كثير منها بنتائج غير مرضية، وإن حملت في طياتها بعداً منهجياً، لأنها انطلقت من مبدأ مغاير للتصور والمنظور الذي ينظر به المسلمون إلى لغتهم. رغم وجود المنهجية عندهم وحضورها في تناول الدرس اللغوي.

ثامناً: كان لدراسة المستشرقين للعربية من خلال المنهج التاريخي آثار كثيرة انعكست على العربية، وأبانت كثيراً من ظواهرها، وإن كان لها بعض الآثار السلبية.

تاسعاً: كان لبعض اللغويين بعض إشارات وملامح تنم عن معرفتهم بالدراسة المقارنة، لكنها لم تأخذ حيزاً كبيراً من اهتمامهم، واستطاع المنهج المقارن أن يكشف كثيراً من خصائص العربية وتميزها في نواح صوتية ونحوية وصرفية.

عاشراً: كان لاستخدام المنهج الوصفي بعض آثار سلبية على العربية؛ حيث اعتمد على دراسة اللغة في صورتها المنطوقة والمحكية، مما حدا ببعض المستشرقين للدعوة إلى استخدام العاميات ومحاولة تقعيدها واستبدالها بالفصحى، لكنها دعوات لم تكتمل نظراً لصلابة الفصحى وتأصلها وتجذرها وتميزها عن غيرها من اللغات.

حادي عشر: مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أخذت الدعوة إلى العامية واستخدامها كبديل عن الفصحى مجالاً صريحاً وواضحاً من عدد من المستشرقين، وكانت مجالاً للتعلم والدراسة في المدارس الأوروبية.

ثاني عشر: دعا عدد من المستشرقين إلى: كتابة اللغة العربية أو العاميَّة بالحرف اللاتيني. كما كانت هناك دعوات لتقعيد العامية. ودعوات إلى لهجات مختلفة تكون لغات رسمية لكلِّ بلد عربي.

ثالث عشر: كانت هناك أبعاد للدعوة إلى العامية؛ فقد تزامنت هذه الدعوة مع تراجع وانحسار الفصحى في ذلك الوقت.

رابع عشر: قضية الفصحى والعامية قضية قديمة. لكن اللغويين العرب كانوا يدرسونها خدمة للفصحى، وليس بهدف جعلها أمراً واقعاً.

خامس عشر: المستشرقون الذين درسوا العربية وفق المنهج التاريخي، درسوها في جانبها المدون والتراثي، فكانت نظرتهم أكثر عمقاً وتفهماً، ولما

نشطت الدراسات الوصفية تغيرت هذه الوجهة ونظروا إلى اللغة من جانبها المنطوق بعيداً عن الجانب المدون، فأرادوا تقعيد هذا الواقع اللغوي والتعامل معه كما هو، بعيداً عن النظرة المعيارية أو النظرة التاريخية.

سادس عشر: تأثر بعض المستشرقين بالمنهج الوصفي دعاهم لاعتبار الفصحى لغة ميتة، ودعوا لفرض العامية كأمر واقع. بينما كان للمنهج التاريخي فضل في اهتمام بعض المستشرقين الغربيين بالفصحى.

سابع عشر: نشطت الصحوة اللغوية والأدبية، كما زاد التوجه إلى الفصحى، والاهتمام بالتراث اللغوي مع بدايات القرن العشرين، كرد فعل لانتشار الدعوة إلى العامية.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يلهمنا السداد ويوفقنا إلى طريق الرشاد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أهم مراجع البحث

1 – أباطيل وأسمار. محمود محمد شاكر: مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الثانية، 1972م.

2 – الاتجاهــات الحديثــة في صناعة المعجمات، د. محمود فهمي حجازي. ضمن بحوث مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء الأربعون، ذو القعدة. 1397هـ.

3 – الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، د. محمد حسين، مؤسسة الرسالة. بيروت.

4 – الإتقــان في علــوم القــرآن: الإتقان في علــوم القرآن: جلال الدين السيوطــي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيــم: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط: 1394هـ/1974م.

5 – آثــار الفكــر الاستشراقي في المجتمعات الإسلامية. محمد خليفة حسن، القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ط1 1997م.

6 – أجنحــة المكــر الثلاثة وخوافيها، (ودراسة منهجية شاملــة للغزو الفكري)، عبدالرحمن بن حســن حَبَنَّكَة: دار القلم – دمشق ط الثامنة، 1420هـ– 2000م.

7 – الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم. تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر. قدم له: د. إحسان عباس: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

8 – الأساس في فقه اللغة العربية. إشراف: المستشرق الألماني فيشر. ترجمة وتعليق : د. سعيد بحيري. مؤسسة المختار للنشر والتوزيع. القاهرة. الطبعة الأولى 1422هـ – 2002م.

9 – أساليب الغزو الفكري، د. علي جريشة وغيره، القاهرة: دار الاعتصام، ط1/ 1977م.

10 – الاستشــراق أخطــر تحد للإسلام. د. شاكر شــوق. دراسات الجامعة الإسلاميــة العالمية شيتاغونــغ، بنغلاديش.المجلد الثالث، ديسمبر 2006م.

11 – الاستشــراق في الأدبيــات العربية :عرض للنظرات وحصر وراقي للمكتــوب. د. علي النملة. الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 1414هـ/1993م.

12 – الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، د. مازن بن صلاح مطبقاني. الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1995م.

13 – الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د. محمود حمدي زقزوق. دار المعارف مصر.

14 – الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفى السباعي. بيروت: المكتب الإسلامي، ط1972/2م.

15 – الاستشراق: أهدافه ووسائله، د. محمد فتح الله الزيادي، بيروت: دار قتيبة. ط2. 2002م.

16 – الاستشراق، إدوارد سعيد ترجمة د. محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، 2006م ط الأولى.

17 – الإسلام في وجه التغريب (مخططات التبشير والاستشراق): أنور الجندي: دار الاعتصام، القاهرة، (د.ت).

18 – أصول تراثية في اللسانيات د. كريم زكي حسام الدين. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 2001م.

19 – البحث اللغوي عند العرب: د. أحمد مختار عمر. عالم الكتب. الطبعة: الثامنة 2003م.

20 – البحث اللغوي في دراسات المستشرقين الألمان. العربية أنموذجاً. عبد الحسن عباس حسن الزويني. رسالة ماجستير قدمها إلى مجلس كلية الآداب في جامعة الكوفة. 2010م.

21 – البحث اللغوي. د. محمود فهمي حجازي: القاهرة. 1993م.

22 – البحث اللغوي: كيفيته، مناهجه. د. فوزي يوسف الهابط، القاهرة: دار الولاء، 1993م، 1413هـ.

23 – البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي. تحقيق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر– بيروت. ط:1420هـ.

24 – بحوث في الاستشراق واللغة: د. إسماعيل عمايرة. مؤسسة الرسالة. ط. الأولى 1417هـ 1996م.

25 – بحوث ومقالات في اللغة: رمضان عبدالتواب. الطبعة الثانية، 1408 هـ – 1988م، مكتبة الخانجي – القاهرة.

26 – تاريخ آداب العرب. مصطفى صادق الرافعي. مكتبة الإيمان : 1997م.

27 – تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر. د. نفوسة زكريا، دار نشر الثقافة بالإسكندرية. ط: الأولى 1964م.

28 – تاريخ الفلسفة في الإسلام: ت.ج. دي بور. ترجمة وتعليق: د. محمد عبدالهادي أبو ريدة: دار النهضة العربية الطبعة الثالثة: 1954م.

29 – تاريخ حركة الاستشراق. (الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين). يوهان فك. ترجمة: عمر لطفي العالم. دار المدار الإسلامي. ط الثانية 2001م.

30 – تحريفات العامية للفصحى د. شوقي ضيف. دار المعارف. بدون تاريخ.

31 – تراث الإسلام (الجزء الأول). تصنيف جوزيف شاخت، وكليفورد بوزورث. ترجمة محمد زهير السمهوري، د. حسين مؤنس، د. إحسان صدقي، (الصورة العربية والدراسات الغربية الإسلامية) الكويت: سلسلة عالم المعرفة، عدد (11) أغسطس 1978م.

32 – التطور النحوي للغة العربية. برجشتراسر. تصحيح وتعليق د. رمضان عبدالتواب. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط: الثانية.

33 – التفكير اللغوي بين القديم والجديد، د. كمال محمد بشر، مكتبة الشباب- القاهرة.

34 – التوراة والإنجيل والعلم. موريس بوكاي. ترجمة الشيخ: حسن خالد. المكتب الإسلامي. الطبعة الثالثة 1411هـ- 1990م.

35 – ثمار القلوب في المضاف والمنسوب: أبو منصور الثعالبي. دار المعارف – القاهرة.

36 – حياة محمد: محمد حسين هيكل. دار المعارف. مصر. الطبعة الرابعة عشرة.

37 – الدراسات العربية في ألمانيا، تطوّرها التأريخي ووضعها الحالي البرت ديتريش: جوتنجن/ 1962م.

38 – الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه) رودي بارت. ترجمة مصطفى ماهر (القاهرة: دار الكتاب العربي) (د.ت).

39 – دراسات في فقه اللغة: د. صبحي إبراهيم الصالح : دار العلم للملايين: الطبعة الأولى 1379هـ – 1960م.

40 – دراسة في المعاجم العربية، كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني، فرند ديم، ترجمة: د. حسن محمد الشماع، الرياض 1400هـ- 1980م.

41 – رؤية إسلامية للاستشراق. أحمد عبدالحميد غراب بيرمنجهام: المنتدى الإسلامي، ط2. 1411هـ.

42 – شبكة التفسير والدراسات القرآنية http://www.ahlalhdeeth.com/vb/showthread.php?t=26757

43 – الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، د. ساسي سالم الحاج. بيروت، دار المدار الإسلامي. ط1 ،2002م.

44 – العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، يوهان فك، ترجمه وقدم له، وعلق عليه ووضع فهارسه د. رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي بمصر 1980م.

45 – العربية في ضوء المنهج المقارن دراسات المستشرقين الألمان نموذجاً. د. عبد الحسن عباس. مجلة اللغة العربية وآدابها. جامعة الكوفة. كلية الآداب. عدد(12).

46 – العصر الجاهلي: للدكتور شوقي ضيف، ط الثامنة دار المعارف، د. ت.

47 – علم اللغة العام. د. عبدالله ربيع، مؤسسة الرسالة، 1403 هـ- 1983م.

48 – علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية. د. محمود فهمي حجازي. وكالة المطبوعات. الكويت.

49 – علم اللغة مقدمة للقارئ العربي د. محمود السعران، دار الفكر العربي: طبعة 2، القاهرة 1997م.

50 – العين للخليل بن أحمد. تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال.

51 – الفصحى لغة القرآن، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1402 هـ— 1982م.

52 – الفصحى ونظرية الفكر العامي. مرزوق بن صنيتان بن تنباك مطابع الفرزدق. 1407هـ- 1986م- الرياض.

53 – فصول في فقه العربية: د. رمضان عبدالتواب. الطبعة السادسة الخانجي بالقاهرة، سنة 1420هـ.

54 – الفضائيات واللغة، مسعود بوبو. مجلة الفيصل السعودية. عدد (259) المحرم 1419هـ مايو، سنة 1998م.

55 – الفكر الإسلامي الحديث، د. محمد البهي. بيروت: دار الفكر. ط:6 / 1973 م.

56 – فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر. د. أحمد سمايلوفتش: دار الفكر العربي. 1418هـ 1998م.

57 – في اللهجات العربية. د. إبراهيم أنيس: مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة التاسعة 1995م.

58 – في علم اللغة العام، للدكتور عبدالصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت.

59 – قراءة جديدة في قضية الدعوة إلى العامية د. عبدالله أحمد خليل إسماعيل مجلة الجامعة الإسلامية المجلد الخامس. العدد الثاني. يونيه 1997م.

60 – قضية الانتحال في الشعر الجاهلي. دكتور محمد بلاسي. مجلة الداعي الشهرية الصادرة من الجامعة الإسلامية دار العلوم. ديوبند جمادى الثانية 1431هـ. مايو – يونيو 2010م، العدد : 6، السنة : 34.

61 – كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، لأبي حاتم الرازي. مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء. ط الأولى 1415هـ 1994م.

62 – لغة الحضارة وتحديات المستقبل. د. عبدالعزيز شرف. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة، 1999م.

63 – اللغة العربية بين الفصحى والعامية. خالد مفلح عيسى. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، طبعة أولى: 1987م.

64 – لغتنا والحياة، للدكتورة عائشة عبدالرحمن، دار المعارف. مصر، (د. ت).

65 – اللهجات العربية في التراث د. أحمد علم الدين الجندي: الدار العربية للكتاب:1983م.

66 – اللهجات العربية في معجم المصباح المنير. السيد عبدالحليم مصطفى رسالة ماجستير مخطوطة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية جامعة الأزهر بالقاهرة.

67 – المجمعيون في خمسة وسبعين عاماً. إعداد: محمد مهدي علام، د. محمد حسن عبدالعزيز. القاهرة: مجمع اللغة العربية. 2007م.

68 – محاضرات في فقه اللغة. د. عصام نور الدين. بيروت: دار الكتب العلمية: 2003م.

69 – مدخل إلى علم اللغة الحديث د. عبدالفتاح البركاوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط: رابعة 1426هـ– 2005م.

70 – المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: د. رمضان عبدالتواب. مكتبة الخانجي بالقاهرة. ط: الثالثة 1417هـ – 1997م.

71 – المراحل الزمنية للغة العربية الفصحى. فيشر. ترجمة د. إسماعيل عمايرة. ضمن: بحوث في الاستشراق واللغة.

72 – المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي. تحقيق: فؤاد علي منصور: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، 1418هـ 1998م.

73 – المستشرقون البريطانيون. ا. ج. آربري. تعريب محمد الدسوقي النويهي. (لندن: وليم كولينز، 1946).

74 – المستشرقون والتاريخ الإسلامي، د. علي الخربوطلي: القاهرة: جمعية الدراسات الإسلامية، 1976م.

75 – المستشرقون والدراسات القرآنية. د. محمد حسين الصغير. دار المؤرخ العربي. بيروت لبنان. د. ت.

76 – المستشرقون والمناهج اللغوية، د. إسماعيل أحمد عمايرة. دار حنين. عمان. الأردن. ط الثانية 1992م.

77 – المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، د. محمد صالح البنداق: بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1980م.

78 – المستشرقون ونظرياتهم في نشأة الدراسات اللغويَّة، إسماعيل أحمد عمايرة: دار حنين. عمان. الأردن. ط الثانية 1992م.

79 – مستشرقون (سياسيون، جامعيون، مجمعيون). نذير حمدان مكتبة الصديق– الطائف. ط: الأولى 1408هـ– 1988م.

80 – المستشرقون. نجيب العقيقي. القاهرة: دار المعارف. د.ت.

81 – المعجم الأدبي. جبور عبدالنور، دار العلم للملايين، بيروت، 1979م.

82 – المعجم التاريخيّ لدى المستشرق الألماني أوجست فيشر: دراسة تقويمية إعداد: عبدالعزيز بن حميد بن محمد الحميد. بحث مقدّم إلى (ندوة المعجم التاريخي للغة العربية– قضاياه النظرية والمنهجية والتطبيقية) فاس 23–25 ربيع الثاني 1431هـ / 8 – 10 أبريل 2010م.

83 – المعجم التاريخي للغة العربية وثائق ونماذج، د. محمد حسن عبدالعزيز. دار السلام. القاهرة. 1429هـ – 2008م.

84 – معجـم اللغـة العربية الفصحـى– مانفريد أولمان. ضمن كتاب: ألمانيا والعالم العربي، دراسات تتناول الصلات الثقافية والعلمية والفنية بين الألمان والعرب– حققه بالألمانية أ. د. هانس روبرت رويمر، ترجمة د. مصطفى ماهر، د. كمال رضوان.

85 – المعجـم اللغـوي التاريخي، أ. فيشر، تصدير : د. إبراهيم مدكور المقدمة، ط 1 1387هـ– 1967م. القاهرة، مجمع اللغة العربية، المطابع الأميرية.

86 – المعجم اللغوي التاريخي، منهجه ومصادره، د. عبدالغني أبو العزم. الرباط. 2006م.

87 – معجـم المعاجـم (تعريف بنحو ألف ونصف ألف مـن المعاجم العربية التراثية): أحمد الشرقاوي إقبـال: ط الثانية 1993م، دار الغرب الإسلامي– بيروت.

88 – معجم علم اللغة النظري (إنجليزي – عربي)، د. محمد على الخولي (ص). ط 1 بيروت. 1982م.

89 – معجم متن اللغة: الشيخ أحمد رضا. الناشر: دار مكتبة الحياة– بيروت: 1378هـ– 1959م.

90 – من قضايا اللغة العربية المعاصرة – المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، 1990م.

91 – نزهــة الألبــاء في طبقات الأدباء: أبو البركات الأنباري. تحقيق: إبراهيـم السامرائي: مكتبة المنار، الزرقاء– الأردن ط: الثالثة، 1405هـ– 1985م.

غالباً ما يرتبط مصطلح الاستشراق بنظرة سلبية لدى كثير من الشعوب العربية، ولذلك مبرراته المعتبرة، غير أن هذا الكتاب يسلط الضوء على كثير من الجوانب الإيجابية التي أفاد من خلالها المستشرقون في فروع كثيرة من العلوم، وبخاصة اللغة العربية وبعض علوم القرآن، مع عدم إغفال الدعاوى المنادية آنذاك بترك اللغة العربية الفصحى، والاعتماد على اللهجات المحلية، وما لهذه الدعاوى من آثار سلبية وإيجابية كذلك.

كما كان لبيان الخلفيات والتوجهات المنهجية لدى دراسة المستشرقين للعربية النصيب الوافر من محتوى هذا الكتاب.